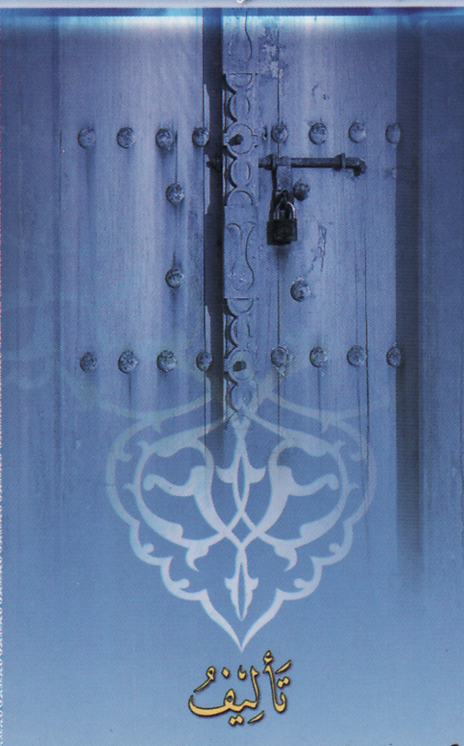


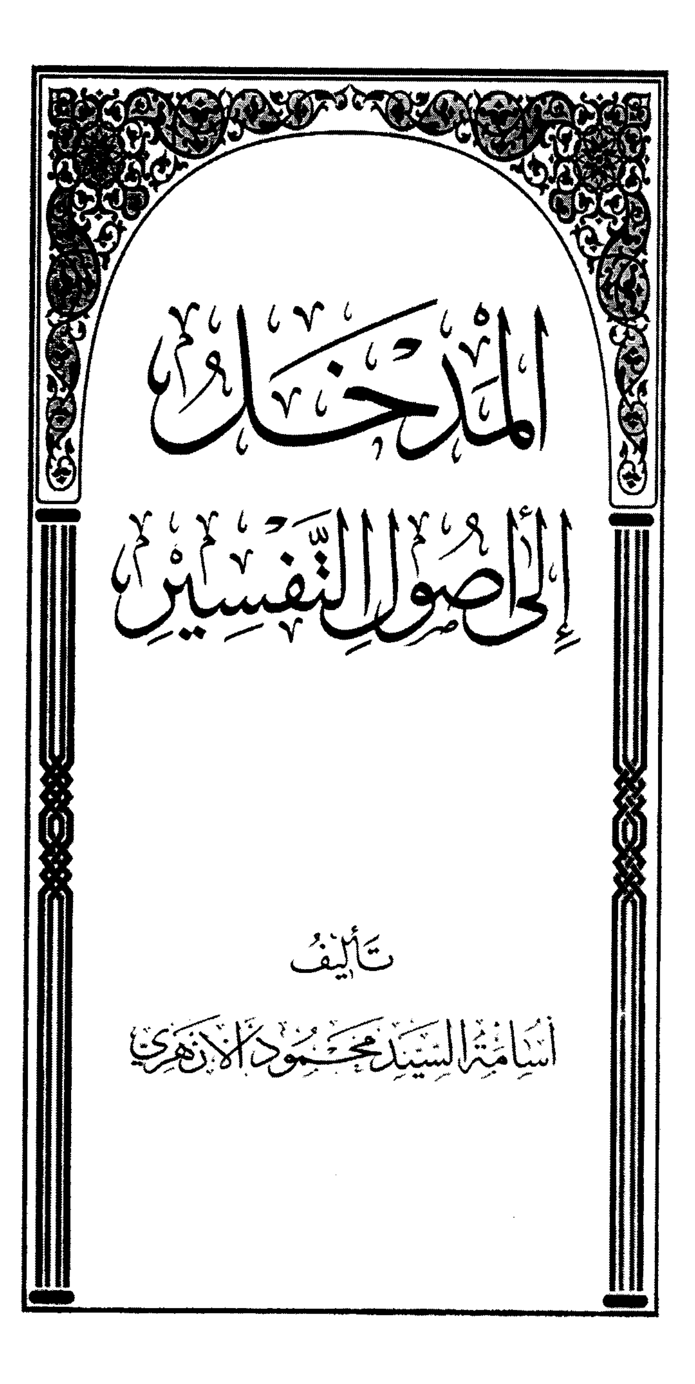






الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر


المدخل
إلى أصول التفسير



المدخل إلى أصول التفسير

تأليف

أسامة السيد محمود الأزهري

الكتاب: المدخل إلى أصول التفسير.
المؤلف: أسامة السيد محمود الأزهري.
الطبعة: الأولى.
سنة الطبع: ٢٠١٠م.
الناشر: الوابل الصَّيِّب للإنتاج والتوزيع والنشر.
٧٠٤٧ شارع ١٧- المقطم - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٩٨٥٠٨٩١ (+٢٠٢) - ٢٩٨٥٠٨٢٤ (+٢٠٢)
٢٥٠٠٥٧٨٣٠ (+٢٠٢) - ٢٦٦٧٣٣٩٣ (+٢٠٢)
محمول ٠١٨١٧٥٥٥٦٦ (+٢٠٢)
E-Mail: Info@Alwabell.com
www.alwabell.com
www.alimamalallama.com
رقم الإيداع: ٣٣٥٥/ ٢٠١٠
الترقيم الدولي: ٧-٣٤-٦٢١٤-٩٧٧

الأزهري، أسامة السيد
المدخل إلى أصول التفسير/ أسامة السيد الأزهري، -ط. ١ - القاهرة: الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر، ٢٠١٠م.
١١٢ص، ٢٠سم.
تدمك ٠٩٧٧٦٢١٤٣٤٧
١ - القرآن - تفسير.
أ - العنوان.
٢٢٧




بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل وتوطئة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله خير خلق الله أجمعين، وعلى آله وصحبه ومَن والاه واتَّبع هداه بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد..

فإن القرآن الكريم كتاب إلهيٌّ، ونص ربانيٌّ مقدس، جعله الله تعالى مشتملًا على العقائد، والأحكام، والآداب، والنظم، والقصص، وصاغه سبحانه على نحو معجزٍ فوق طوق البشر، وحفظه بحفظه دون سائر الكتب الإلهية الأخرى، لِحِكَمٍ تتعلق بالقرآن، من حيث إنه خطاب إلهيٌّ شامل خاتم، موجه إلى البشر أجمعين، مشتمل على أصول الهداية الربانية، وخلاصة المخاطبات الإلهية لجنس البشر، ثم هو نَسَقٌ مفتوحٌ مجرد، يخاطب بني آدم، مهما اختلفت أزمانهم وأمكنتهم، دون الكتب السابقة؛ فإنها نَسَقٌ مُغلقٌ، جاء لفترةٍ زمنية معينة، بحيث تمهد وتفضي بالناس وبالخليقة إلى الهداية العظمى التي جاء بها القرآن.

والمحـاور الكبرى التي تـدور عليهـا المقـاصـد الكليـة والجزئية للقرآن الكريم أربعة: التعريف، والهداية، والإعجاز، والتشريع.

أما التعريف فهو عَرْضُ القرآن لقضية الألوهية، والتدليل على أحقيتهـا، والتعـريف بـأوصـاف الإله الحق سبحـانه، وبكمالاته، وبيان مراده من خلق هذا الكون، وبيان علاقته بالخلق، وأنها الخلق والأمر، ومن الأمر الوحي الشريف، وأنه سبحانه أوجد الإنسان لمقاصدَ كريمةٍ، ثم بيان عاقبة هذا الإنسان، وبيان وظيفته في هذه الحياة، وبيان المعطيات والآليات التي أوجدها الحق سبحانه له من أجل تحقيق هذه المقاصد الشريفة، إلى غير ذلك من القضايا الكبرى، التي هي الإطار الأكبر للنموذج المعرفي الإسلامي، وعلى ضوئه تتحدد منظومة القيم والآداب، وتتولد العلوم والمعارف التي تنبع من تلك المنطلقات، وتحقق تلك المقاصد.

أما الهداية فإنها منهج القرآن في مخاطبة الخلق، وكيفية عرضه لتلك القضايا، وتلطفه في تنويع المسالك التي تقرب تلك الحقائق من عقولهم، والأساليب والوسائل التي ينتهجها في التدليل والمناقشة والرد والإلزام، وتلوين الخطاب بما يتلائم مع الطبيعة النفسية للمخاطب، من الترغيب، والترهيب،

والتشويق، والتذكير بالأصول العامة التي يُقِرُّها البشر أجمعون، وكيف أنها تفضي إلى إقرار تلك الحقائق وتثبيتها، ثم إثارة الفكر، وفتح مجال النظر والتأمل وما أشبه.

وأما الإعجاز فهو معنًى لا يُدْرِكُ كُنْهه، يشيع في ثناياه اتساقًا وانسجامًا، وعظمةً، وفخامةً، وصياغةً عجيبةً محيرةً، مع تجردٍ عن المشخصات، وتعالٍ عن الزمان والمكان، وتجددٍ يستوعب به كل مستحدث، إضافةً إلى التحدي الصريح المفْحِم، الذي يدل على ثبوت تلك الحقائق.

وأما التشريع فإنه توصيفٌ دقيقٌ لأحوال المكلَّفين وأعمالهم، مع آثارٍ دنيويةٍ وأُخرويةٍ تترتب على ذلك، وتناولٌ لأحوال الفرد بالبناء، والتوجيه، والتكليف، والإلزام، والمحاسبة، وبيانٌ لما ينشأ من تعامل الفرد مع غيره من أحكام واعتبارات، تغطي كافة أوجه النشاط البشري.

ولا شك في أنَّ كلَّ واحد من هذه المحاور الأربعة يقتضي: عرْضًا وتدليلًا، ومناقشةً وتفصيلًا، بحيث تنشعب من كل محورٍ محاورُ جزئيةٌ خادمةٌ، تقرر ذلك الأصل وتفصله، وتشرح أبعاده، بحيث تمتزج كلها وتتداخل في النَّظْم القرآني، على نحو دقيقٍ مركز، ثم إن كلَّ واحدٍ من هذه المقاصد، تتفرع منه

وتنشعب عنه محاور فرعية، ومقاصد تابعة، بحيث إن العلوم الشرعية بأكملها قامت أصلًا من أجل خدمة النص القرآني؛ بل إن منظومة العلوم التي عرفتها الأمة بأكملها لَتُجَنَّدُ وتوظف في خدمته.





أصل من أصول التفسير في:
«علاقة القرآن الكريم بالعلوم المختلفة» وأثر ذلك في تحديد آلات المفسر وأدواته

نزل القرآنُ الكريمُ على أمةٍ بضاعتها اللغة، حيث بلغت شأوًا بعيدًا من الإجادة والإتقان لفنون القول والأداء، وامتلاك ناصية البيان، مع نباهة العقل، وصفاء الذهن، مما مكنهم من معرفة مخارج الكلام ومداخله، وتمييز جيده من رديئه، مما يتوقف على تَذَوّقٍ واسْتِبْطانٍ لطرائق التركيب العالي للكلام[1]، فلما أن نزل عليهم القرآن حصلت لهم فائدتان:

الأولى: إدراكهم لعظمة هذا النمط من الكلام، وجلالته وإعجازه، وربانيته، وأنه فوق طوق البشر، وأنه من عند الله، وأنه حق، وما اشتمل عليه من مبادئ وأحكامٍ، ووحيٍ، وحجة.

الثانية: إدراكهم لمعانيه ومقاصده، وفهمهم لأساليبه وتراكيبه، فنشطت أمة العرب من ثم في تحليل نسق بنائه،

(١) وانظر بحثًا مهمًا في أن: (لغة العرب دليل النضج العقلي) للأستاذ: عبد المتعال الجبري في كتابه: «العقلية والثقافة العربية في الجاهلية»، ص(٢٠٦).

وطرائق نظمه، وأساليب معماره، حتى شرعت الأمة في توليد منظومات كاملة من العلوم المتعلقة بهذا الكتاب، والخادمة له، على ضوء أساليبه، ومسالكه، وطرائقه؛ فكان القرآن هو الملهم الأول، والمحرك الأسبق لتلك الحركة العلمية الخادمة له ولعلومه.

قال الحافظ السيوطي -رحمه الله تعالى- في «الإتقان»: (وقال ابن أبي الفضل المرسي في «تفسيره»: جَمَعَ القرآنُ علومَ الأَوَّلينَ والآخرِينَ بحيثُ لم يُحِطْ بها عِلْمًا -حَقِيقَةً- إِلَّا المتكَلِّمُ بها، ثم رسولُ اللهِ ﷺ خَلَا ما اسْتَأْثَرَ به سبحانه وتعالى.

ثم ورث ذلك عنه معظم سادات الصحابة وأعلامهم، مثل: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، حتى قال: «لَوْ ضَاعَ لِي عِقَالُ بَعِيرٍ لَوَجَدْتُهُ فِي كِتَابِ اللهِ تعالى».

ثم ورث عنهم التابعون بإحسان، ثم تَقَاصَرَتِ الهِمَم، وَفَتَرَتِ العَزائِم، وَتَضَاءَلَ أَهْلُ العلم، وَضَعُفُوا عن حَمْلِ ما حَمَلَهُ الصحابة والتابعون من علومه، وسائر فنونه، فَنَوَّعُوا علومه، وقامت كل طائفة بفن من فنونه:

فَاعْتَنَى قوم بضبط لغاته، وتحرير كلماته، ومعرفة مخارج حروفه، وعددها، وعدد كلماته، وآياته، وسوره، وأحزابه،

وَأَنْصَافِهِ، وَأَرْبَاعِهِ، وعدد سَجَدَاتِهِ، والتعليم عند كل عشر آيات، إلى غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة، والآيات الـمُتَمَاثِلَةِ، من غير تعرُّضٍ لمعانيه، ولا تدبر لما أُودِع فيه، فسموا: «القُرَّاء».

واعتنى «النُّحَاةُ» بالمُعْرَب منه والمبني، من: الأسماء، والأفعال، والحروف العاملة، وغيرها، وأوسعوا الكلام في الأسماء، وتوابعها، وضروب الأفعال، واللَّازِمِ، وَالمُتَعَدِّي، ورُسُوم خط الكلمات، وجميع ما يتعلق به، حتى إن بعضهم أعرب مُشْكِلَهُ، وبعضهم أعربه كلمةً كلمة.

واعتنى «المفسرون» بألفاظه، فوجدوا منه لفظًا يدل على معنىً واحد، ولفظًا يدل على معنيين، ولفظًا يدل على أكثر، فأجروا الأول على حكمه، وأوضحوا معنى الخفي منه، وخاضوا في ترجيح أحد محتملات ذي المعنيين والمعاني، وأعمل كل منهم فكره، وقال بما اقتضاه نظره.

واعتنى «الأصوليون» بما فيه من الأدلة العقلية، والشواهد الأصلية، والنظرية، مثل قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[1]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، فاستنبطوا منه أدلة على: وحدانية الله ووجوده، وبقائه

---

(١) سورة الأنبياء، آية [٢٢].

وقدمه، وقدرته وعلمه، وتنزيهه عما لا يليق به، وسموا هذا العلم بـ: «أصول الدين».

وتأمَّلَت طائفة منهم معاني خطابه، فرأت منها ما يقتضي العموم، ومنها ما يقتضي الخصوص، إلى غير ذلك؛ فاستنبطوا منه أحكام اللغة من: الحقيقة، والمجاز، وتكلموا في: التخصيص والإخبار والنص، والظاهر والمجمل، والمحكم والمتشابه، والأمر والنهي، والنسخ... إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة، واستصحاب الحال، والاستقراء، وسموا هذا الفن: «أصول الفقه».

وأحكمت طائفةٌ صحيح النظر، وصادق الفكر، فيما فيه من الحلال والحرام، وسائر الأحكام؛ فأسسوا أصوله، وفرعوا فروعه، وبسطوا القول في ذلك بسطًا حسنًا، وسموه بـ«علم الفروع» وبـ«الفقه» أيضًا.

وتلمحت طائفةٌ ما فيه من قصص القرون السالفة، والأمم الخالية، ونقلوا أخبارهم، ودونوا آثارهم ووقائعهم، حتى ذكروا بدء الدنيا، وأول الأشياء، وسموا ذلك بـ«التاريخ»، و«القصص».

وتنبَّه آخرون لما فيه من: الحكم، والأمثال، والمواعظ التي تقلقل قلوب الرجال، وتكاد تدكدك الجبال، فاستنبطوا مما

فيه من الوعد والوعيد، والتحذير والتبشير، وذكر الموت والمعاد، والنشر والحشر، والحساب والعقاب، والجنة والنار- فصولًا من المواعظ، وأصولًا من الزواجر؛ فسموا بذلك: «الخطباء، والوعاظ».

وأخذ قومٌ مما في آية المواريث، من ذِكْر السهام وأربابها، وغير ذلك: «علم الفرائض»، واستنبطوا منها من ذكر النصف، والثلث، والربع، والسدس، والثمن، حساب الفرائض، ومسائل العول، واستخرجوا منه أحكام الوصايا.

ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالات على الحكم الباهرة، في الليل والنهار، والشمس، والقمر ومنازله، والنجوم والبروج، وغير ذلك؛ فاستخرجوا منه: «علم المواقيت».

ونظر «الكُتَّاب والشعراء» إلى ما فيه من جزالة اللفظ، وبديع النظم، وحسن السياق، والمبادئ، والمقاطع، والمخالص، والتلوين في الخطاب، والإطناب، والإيجاز، وغير ذلك؛ فاستنبطوا منه: «المعاني، والبيان، والبديع».

ونظر فيه «أرباب الإشارات، وأصحاب الحقيقة» فلاح لهم من ألفاظه معان ودقائق، جعلوا لها أعلامًا اصطلحوا عليها، مثل: الفناء والبقاء، والحضور، والخوف والهيبة، والأنس والوحشة، والقبض والبسط، وما أشبه ذلك.

هذه الفنون التي أخذتها الملة الإسلامية منه)[1].

قلت: وهذه عبارةٌ جيدةٌ في تصوير لمحات من النشاط العلمي الفائق، الذي قامت به الأمة في خدمة النص القرآني المجد، وكيف أنها استخرجت منه علومًا ومعارف بلغت الغاية في الكثرة والتنوع.

فانتبه إلى كيفية قيام الأمة بخدمة النص القرآني، وكيف أن طوائف العلماء انكبّوا على ملاحظة إشارات القرآن ولَفَتاته، ثم قاموا بتحويل كل آية أو إشارة أو دلالة فيه إلى برنامج عمل، ومنهج تطبيق، ووسّعوا البحث حول كل قضية جاءت في القرآن، فتولدت العلوم والفنون والآداب، ووجدت الحرف والصنائع.

وتحويل آيات القرآن الكريم إلى برامج عمل قضية في غاية الأهمية، وآثارها جليلة؛ إذ من خلالها يسري القرآن إلى المجتمع، ويتنزل إلى التطبيق والتنفيذ، كما أنها عَمَلية عِلْمية، تقتضي بحوثًا ودراسات موسعة، حول المجالات والمَحالّ التي ينبغي تنزيل آيات القرآن الكريم عليها، وكل هذا يحتاج إلى تفصيل وبيان واسع ليس هذا بموضعه.

والمقصود أنه قد تغلغل القرآن الكريم في علوم الأمة،

---

(١) «الإتقان»: (٢/ ٣٣٢).



ومناهجها، ومصادر معرفتها، وهويتها، وسلوكها، وتاريخها، وأورث المسلمين مناهج علمية محررة، بنيت على أصلين راسخين أولهما: الوحي، الذي هو القرآن وما نشأ على ضفافه من علوم، وثانيهما: الواقع وما التحق به من التجربة والاستقراء والتأمل، فأبرزت الأمة علومها المبنية على مصادرها ومناهجها ونظرتها للكون والحياة، وما استتبعه ذلك من تاريخ وتجربة بشرية راقية.

وقد كانت علوم الأقدمين من الصحابة والتابعين ملكاتٍ كامنةً في نفوسهم، راسخة فيها؛ لتَمَكُّن السليقة العربية منهم، والتي كانت تُغْنيهم في فهم القرآن عن تحصيل آلةٍ علميةٍ، يحللون بها النص الشريف، فقرأوا القرآن فاستخرجوا منه العلوم الكثيرة المذكورة، ثم تناقصت الملكات بعد ذلك، فشرعت الأمة في حركةٍ علميةٍ تدريجية، ترصد كلّ مقدارٍ ينقص من الملكات، لتصوغ بإزائه ما يلفت إليه، أو ينبه عليه، من الأصول والقواعد والضوابط، فقاموا بتفكيك تلك الملكات، ونقلها من كونها معانيَ ذهنية صرفة، قائمة بالنفس، إلى كونها أصولاً منصوصة، وقواعد مدونة، بحيث وجب على من بعدهم أن يُحَصّل تلك الأصول، وأن يستوعب تلك القواعد، حتى يستطيع أن يوازيهم في المستوى الأَوَّليّ المجرد،

الذي كانوا ينطلقون منه للنظر في النص القرآني، وقد فعلوا ذلك في اللغة والبلاغة والأصول وغيرها، وقد كَتَبْتُ في هذا المعنى مؤلفًا مستقلًا، أسميته: «التأصيل لمنهج السلف في الفهم»، فانظر تفصيل ذلك فيه.

ومن بعد القرن الرابع الهجري توقفت الأمة عن توليد العلوم إلا قليلًا، وأمضت أشواطًا في خدمة العلوم التي استخرجتها، وتحريرها، وتقريبها، وتلخيصها إلى آخر صور النشاط العلمي المعروف.

وقد نشطت في ذلك الوقت أممٌ أخرى، فأسست علومًا ومعارف على منهج مختلف، ومصادر قاصرة، وفلسفة أخرى، ورؤية مغايرة للكون والحياة، ثم وفدت علينا تلك العلوم والمناهج في وقت لم تكن الأمة فيه في عافيتها وتمام قدرتها على الاستيعاب والانتقاء؛ فأحدثت ارتباكًا ما زلنا نعيش آثاره إلى يومنا هذا.

وتلك العلوم الوافدة، للقرآن فيها منهج ومسلك، وفلسفة ورؤية؛ مما يوجب إعادة بناء تلك العلوم بطريقة تناسب خصوصيتنا، ومصادرنا، ورؤيتنا، ومما يلفت النظر إلى وجوب عودة المسلمين إلى توليد العلوم، ولسماحة شيخنا العلامة الجليل، الإمام الشيخ علي جمعة -مفتي الديار المصرية- كلام

في غاية الأهمية في قضية توليد العلوم عندنا، عنوانه: «توليد العلوم فرض على المسلمين» وكلام فضيلته في كتابه: «سمات العصر، رؤية مهتم»[1] فإذا ما أراد أحد أن يوجد علاقة بين تلك العلوم على حالها، وعلى ما هي عليه، وبين القرآن الكريم، زاد الأمور ارتباكًا.

فالقرآن الكريم قد جاء ببعض العلوم صراحةً، وببعضها ضمنًا، وببعضها تلميحًا أو إشارةً، وكف عن البعض الآخر، أو نهى عنه لمنافاته لمقاصده، فكان لا بد من تفصيل دقيق في صور ارتباط العلوم بالقرآن؛ لأن نسبة العلوم إلى القرآن متفاوتة، فبعضها مرتبط بالقرآن ارتباطًا صريحًا، وبعضها مرتبطٌ به ارتباطًا غير أصليٍّ ولا مباشر.

ولا أجود ولا أتقن عندي من تعبير العلامة الطاهر بن عاشور عن صور تلك العلاقة حيث قال في «التحرير والتنوير»: (وأنا أقول: إن علاقة العلوم بالقرآن على أربع مراتب:

الأولى: علوم تضمنها القرآن، كأخبار الأنبياء والأمم، وتهذيب الأخلاق، والفقه، والتشريع، والاعتقاد، والأصول، والعربية، والبلاغة.

---

(١) «سمات العصر»: (٤٧-٥٩).



الثانية: علوم تزيد المفسر علماً، كالحكمة، والهيئة، وخواص المخلوقات.

الثالثة: علوم أشار إليها أو جاءت مؤيدة له، كعلم طبقات الأرض، والطب، والمنطق.

الرابعة: علوم لا علاقة لها به؛ إما لبطلانها كالزجر، والعيافة، والميثولوجيا، وإما لأنها لا تعين على خدمته كعلم العروض والقوافي)[1].

وأرى أن نتبنى هذا التقسيم في تحديدنا لأنواع العلوم التي يجب على المفسر أن ينظر فيها، ويطالعها ليتأهل للخوض في تفسير كلام الله تعالى.



(١) «التحرير والتنوير»: (١/ ٤٥).

أصل من أصول التفسير في:
مستويات الهداية القرآنية وأثرها في فهم المفسر لكيفية مخاطبة القرآن للخلق أجمعين

تمثل قضية الهداية محورًا من المحاور العظمى التي تعرض لها القرآن الكريم، وعرضها بصور شتى، وضرب من أجلها الأمثال، وساق من أجلها القصص، وأمر من أجلها بالسير في الأرض، وترديد النظر في السماوات والأرض، وصنوف الخلق، والعوالم العلوية والسفلية، ودعا إليها تصريحًا وتلميحًا، بحيث غدت من أبرز القضايا القرآنية على الإطلاق.

ونظرية الهداية في القرآن الكريم تقوم على هيكل عام تندرج تحته محاور، تشتمل على فروع، تنشعب إلى أوامر ونواه، وحكم وأمثال، وقصص ومواعظ، ونُظُم وقيم، إلى غير ذلك من المعاني، التي هي مكونات نظرية الهداية في القرآن الكريم.

والهداية في القرآن الكريم لها مستويان:

الأول: هدايةٌ هي خلقٌ وإيجادٌ للبواعث التي تميل بالإنسان إلى الإيمان بالله وطاعته، وهي أيضًا توفيقٌ وإعانة

على اعتناق شرعه، واتباع رسله، وهذا المستوى تصرفٌ إلهيٌّ محضٌ، لا يملكه أحد من الخلق، وهذا المعنى سماه الله تعالى هداية، ونسبه سبحانه إلى نفسه، وأبى أن يبيحه لأحد من خلقه، حتى أحبهم إليه، وأرضاهم عنده، فنفاه عن سيدنا محمد ﷺ فقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[1].

الثاني: هدايةٌ هي عرضٌ وبيانٌ، ودعوةٌ ودلالةٌ، ومناقشةٌ وتدليلٌ، وإقامةُ براهين، وإيرادُ حجج، ودحضُ شبه، دون أن يملك من يقوم بذلك كله تأثيرًا في القلوب، يحملها به حملًا على التصديق بذلك أو القناعة به، وهذا المعنى هو الذي أمر الله تعالى أنبياءه ورسله أن يقوموا به، وسماه هداية، ونسبه إليهم، فقال في حق المصطفى ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2]، ونسبه إلى أتباع الأنبياء فقال: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾[3].

ثم إن المستوى الثاني من الهداية، والذي هو هداية الدلالة، انقسم أيضًا إلى قسمين:

---

(١) سورة القصص، آية [٥٦].

(٢) سورة الشورى، آية [٥٢].

(٣) سورة الأعراف، آية [١٥٩].

القسم الأول: هدايةٌ عامةٌ: خاطب الله تعالى فيها الخلق أجمعين، وبسط لهم وجوه الحق، وشرح لهم مداخله، ورفع لهم معالمه، حتى تنجلي قضية الإيمان تمامًا، وهو في كل ذلك لا يفرق بين مؤمن وكافر، أو مقبل أو مدبر، أو مقر أو معاند، وهذه الهداية مجموعة من المبادئ والنظم التي خاطب الله تعالى بها الخلق أجمعين، وجعلها حظًّا من هدي القرآن لعموم البشر، دون فرق بين من آمن ومن لم يؤمن، مما يمكن أن تستخرج منه مواثيق إنسانية، وقوانين عامة، تحكم الاجتماع البشري بكل فئاته وأطيافه وتوجهاته، وهذا النوع هو الذي قال الله تعالى فيه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[1]، فجعل القرآن هنا هدًى للناس، دون تخصيص لذلك الهدى بفئة أو بتوجه، بل هو هداية لكل الناس.

القسم الثاني: هداية خاصة: وهي مجموعة الشرائع، والأحكام، والتوجيهات الربانية التي خاطب الله بها من آمن به، وصدق رسوله، واتبع كتابه، وأقر لله بالحاكمية، وأقر لشرعه بالحجية، فاحتكم إليه، وفي هذا النوع من الهداية يقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[2]،

(١) سورة البقرة، آية [١٨٥]. (٢) سورة البقرة، آية [٢].

فخصص هنا الهداية بالمتقين دون غيرهم، ويقول تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[1].

وقد انتبه الناس إلى أن الهداية منها مستوًى يستقل الحق سبحانه به، وليس لأحد من الخلق نصيب منه؛ لأنه خلق وإيجاد، وكلاهما من الشؤون الإلهية المحضة، ومنها مستوًى يقوم به الخلق، وهو الإرشاد والدلالة والبيان، لكن قلَّ من انتبه منهم إلى انقسام هداية البيان والإرشاد إلى عامة وخاصة، مع أن القرآن كالصريح في التنبيه إلى ذلك، ولا أقصد هنا تعميم وصف الهداية في موضع وتخصيصها بالمتقين في موضع بل أقصد ما هو أصرح، حيث إن الحق سبحانه وصف القرآن في آية واحدة بالهدايتين العامة والخاصَّة، فقال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[2]، فانتبه إلى التقسيم العجيب، حيث إنه تبيان لكل شيء أولًا، وأنه هدًى ورحمة وبشرى للمسلمين ثانيًا، فكأن التبيان الشامل المتضمن للكشف والإبانة عن كل شيء، كأنه أمر عام، لا ينتفع به المؤمنون دون من سواهم من أمم الأرض.

---

(١) سورة الإسراء، آية [٨٢]. (٢) سورة النحل، آية [٨٩].

وهـذه اللمحة الدقيقة قد اقتنصها وانتبه إليها الإمام ابن جُزَيٍّ في «التسهيل، لعلوم التنزيل»، حيث قال: (﴿هُدًى﴾ هنا بمعنى: الإرشاد لتخصيصه بالمتقين، ولو كان بمعنى البيان لعمَّ، كقوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾)[1] فكأن من الهداية قسماً هو بيان عام خوطب فيه الناس أجمعون.

قلت: ويمكن التمثيل للهداية الخاصة بكل آية بدأت بقوله جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وعددها بضع وثمانون آية حيث يتوجه فيها النداء للمؤمنين، فمضمونها خاص بهم، فهذه هداية خاصة، ويمكن التمثيل للهداية العامة بكل آية بدأت بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، أو بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، أو بقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ وعددها بضع وعشرون آية؛ حيث إن النّداء فيها موجه إلى جنس البشر.

ولذا فإنَّ كلَّ آية استهلَّها الحق بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ تأمر بالأحكام الشرعية، بينما تنحو الآيات التي بدأت بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، أو ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ منحى التذكير بالأصول العامة التي يشترك فيها البشر بأكملهم، من نحو التذكير بقضية الخلق، ولفت النظر إلى

(١) «التسهيل، لعلوم التنزيل»: (١/ ٣٥).

النعم والآيات الربانية، أو الاحتراس من الشيطان وكيده أن يصدهم عن سبيل الله، أو دعوتهم إلى الإقبال على ما جاءت به الرسل، أو تعظيم معالم الدين جملة، أو التعارف بين الأمم، وما أشبه من القضايا المشتركة بين كل بني آدم.

مما يؤكد لنا أنَّ قضية الهداية العامة بأكملها خادمة لقضية الهداية الخاصة، ممهدة لها، وكأنها جاءت لدعوة الناس أجمعين إلى منظومة من القيم، والسنن الإلهية، وأصول الاجتماع البشري، تلفت نظر الخلق إلى أصالة تلك المبادئ ونبلها، وسمو مقاصدها، وتخطيها لحواجز الزمان والمكان، مما يلفت النظر إلى ربانية مصدرها، فتكون سائقًا وباعثًا على الدخول في دين الله تعالى، والاندراج في الهداية الخاصة، فكأن الهداية العامة تهيئ الناس للهداية الخاصة.

وأضرب لك مثالًا على أثر ذلك في فهم النص القرآني، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[1].

فقد عني المفسرون في كلامهم عليها بقضية الأنساب والتفاخر بها، وأصول انتساب العرب، والكفاءة بين الناس

(١) سورة الحجرات، آية [١٣].



باعتبار تفاوت الأنساب، وكرامة التقوى، ونحو ذلك، وقد طالعت في تفسير الآية جملة صالحة من التفاسير منها: «الكشاف»، و«التسهيل»، و«مفاتيح الغيب»، و«المحرر الوجيز»، و«القرطبي»، و«روح المعاني»... وغيرها كثير، وكلامهم جميعًا يدور في فلك المعاني المذكور.

لكن حضور قضية الهداية العامة على النحو الذي شرحناه -مع ملاحظة أن الخطاب للناس جميعًا- يدفعنا إلى الفهم الآتي:

الآية الكريمة خطاب للناس جميعًا، أخبرتهم باتحاد أصلهم؛ توطئة لغرض عظيم، ومقصد شريف، سيأتي بعد قليل، وأخبرتهم أنهم انقسموا إلى شعوب وقبائل تفرقت في الأرض، فاستقلت كل أمة بتجربة بشرية عريقة، وتاريخ طويل، مشحونٍ بالخبرات، والعلوم والمعارف، والآداب والفنون، وموروث حضاري تكوَّنَ عند كل أمة من تلك الأمم، على مدى قرون طويلة، والأمم في ذلك متفاوتة، وطبيعة تلك العلوم عند الأمم مختلفة، بحسب ما اهتدت إليه كل أمة من تحديد مصادر معرفتها، وتصفية تلك المصادر، وربطها بالله تعالى أو عدم ربطها به، وصار لكل أمة طبيعة وخصوصية، فتراث الهنود يختلف في طبيعته ومصادره عن

تراث اليونان، وهما معًا يختلفان عن تراث الفُرْس، والكل يختلف مع التراث العربي الإسلامي؛ إذ لكل أمة طبيعةٌ، وهويةٌ، ومصادر.

ولا شك في أن كل أمة عندها تراث نافع للبشر أجمعين، وخبرات طويلة ينتفع بها الخلق كلهم، وعندها أيضًا حظ من تراثها الخاص بها من فكر منحرف، أو عقائد وثنيّة، أو أهداف قوميّة خاصة بها، أملت عليها توجُّهًا معيّنًا، انطبعت به علومها وفنونها.

فجاء القرآن الكريم في الآيةِ الكريمة وأشار إلى ذلك، ثم وجه إلى التعارف، ورتب ذلك التعارف على انقسام البشر إلى شعوب وقبائل، بل جعله هو الغرض من انقسامهم، فليس المقصود إذًا بالتعارف ما يقع بين الأفراد، بل المقصود حركة تعارف أممية، يحدث فيها بين أمم البشر سريانٌ للعلوم والمعارف، وتتبادل فيه الأمم الفنون والآداب، بحيث تطلع الأمم على موروث جديد لم تتوجه هي إليه، ثم يجري بعد ذلك ترشيح وانتقاء من كل أمة، للعلوم والمعارف الواردة عليها، فتقبل وترد، وتضيف وتكمل.

وقد حدث ذلك في تاريخنا، حيث جاء التتار إلى ديارنا في هجوم بربري همجي، أحدث عندنا مأساة، من أكبر مآسي

تاريخنا، ثم انجلت الكربة، وحصل التعارف، فاكتشفت كل أمة ما عند الأمة الأخرى، ودخل المغول في الإسلام من جهة، ومن جهة أخرى أعجب المسلمون بالنسق المغولي في العمارة والبناء فنقلوه، وظل معروفًا في الفنون الإسلامية إلى يومنا هذا بالفن المغولي، وهكذا، وللأستاذ السيد: محمد علي البار كتاب مهم عنوانه: (لماذا أسلم التتار؟؟)، وهو مطبوع.

إذًا، كأنَّ الشرعَ الشريفَ جاء بدعوة عالمية إلى تعارف الأمم، وخاطب بها الناس أجمعين، وكان في إمكان المسلمين أن يقتنصوا تلك الدعوة، وأن يؤسسوا بها فكرة عالمية نسميها مثلًا: (تعارف الحضارات) بدلًا من فكرة: (صدام الحضارات) التي بنيت على هوية وفكر لا يؤمن بالله ولا برسوله، فنظرته إلى الكون والحياة نظرة الصدام، وكان بوسعنا أن ندعو منذ قرون إلى عولمة قائمة على أصولنا وقيمنا وهويتنا، نحن نصنعها، أو نشارك فيها مشاركة مؤثرة، توصل هداية القرآن ومبادئه إلى الناس أجمعين.

إضافة إلى أن القرآن أعلى من قيمة التقوى، وجعلها معيار التفاضل بين البشر، مما يعزز من قدر القيم، والآداب، والأخلاق، فيوجه الخلق في الجملة إلى نمط راق من التعامل البشري، يقصد به المسلم المنزلة عند الله، ونيل رضاه،

ويقصد به غير المسلم المثالية والرقي، ويكفي أن يرث ذلك من نبع القرآن.

أرأيت كيف أن تقسيم الهداية القرآنية إلى هداية عامة وهداية خاصة، وأن وضوح ذلك في ذهن المفسر شديد الأهمية، عظيم الأثر.



أصل آخر من أصول التفسير في:
أنّ القرآن يُبيِّن بعضه بعضا

أول ما ينبغي على المفسر أن يعتني به هو أن يجمع المتشابهات، ويقرن بعضها ببعض، فرب معنًى أجمله القرآن في موضع وفصَّله في موضع آخر، أو أطلق في موضع وقيّد في موضع آخر وهكذا.

ثم إن القرآن ربما تعرض للمعنى الواحد في غير موضع؛ لحكم عالية اقتضت تخصيص كل موضع بالقدر الذي أُورد فيه، فإذا ما جمع المفسر كل مواضع وروده تجلى له الهيكل العام الذي أراده القرآن في تلك القضية.

وقد علَّم المصطفى ﷺ الصحابة ذلك المنهج في فهم القرآن في عدة مواقف، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لَمَّا نَزَلَتِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾[1] شَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاس، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ!! وأَيُّنَا لَـمْ يَظْلِم نَفْسَهُ؟! فَقَالَ: «إِنَّهُ لَيْسَ الَّذِي تَعْنُونَ، أَلَمْ تَسْمَعُوا قَوْلَ الْعَبْدِ الصَّالِحِ: ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[2] إِنَّمَا

(١) سورة الأنعام، آية [٨٢]. (٢) سورة لقمان، آية [١٣].

هُوَ الشِّرْكُ»، فقد أطلق لفظ الظلم في موضع فشاع في المعاني المعهودة من الظلم في عرف الخطاب، بينما هو مفسر في موضع آخر بالشرك، والذي يجعل الموضع الآخر متعينًا للبيان هو الفهم العالي لقواعد الشريعة وكلياتها، ومنهجها في تحديد أسباب النجاة وأسباب الهلاك، مما يعين على إلحاق الآيات بعضها ببعض.

وما زال هذا المعنى بهم، حتى صرحوا بأن القرآن كله كالسورة الواحدة، يُحمل بعضه على بعض، قال الإمام الفخر الرازي في «مفاتيح الغيب»: (لأن القرآن كله كالسورة الواحدة، وكالآية الواحدة، يصدق بعضها بعضًا، ويبين بعضها معنى بعض، ألا ترى أن الآيات الدالة على الوعيد مطلقة، ثم إنها متعلقة بآيات التوبة وبآيات العفو)[1].

وللعلامة الطاهر بن عاشور تحرير جيد على هذا المعنى، يمثل ضابطًا مُهمًّا يجب تأمله، في قضية حمل بعض القرآن على بعض، قال في «التحرير والتنوير»: (وهذا كلام لا يحسن إطلاقه؛ لأن القرآن قد يحمل بعض آياته على بعض، وقد يستقل بعضها عن بعض؛ إذ ليس يتعين أن يكون المعنى

(١) «مفاتيح الغيب»: (٣٢/ ٩٨).



المقصود في بعض الآيات مقصودًا في جميع نظائرها، بله ما يقارب غرضها)[1].

وقد ألَّف ابن الجوزي كتابًا فيما أُجمل في القرآن في موضع وفُسِّر في موضع آخر منه، ونَبّه ابن تيمية إلى هذا المعنى في «أصول التفسير»، وكذا ابن كثير في أوائل «تفسيره»، وكلامه مأخوذ من كلام ابن تيمية كما هو معلوم، ثم السيوطي في «الإتقان»، وغيرهم كثير.

وهو قريب مما عُرف عند المتأخرين بالتفسير الموضوعي للقرآن الكريم، وقد كتب فيه كثيرون، من أجودهم فضيلة الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله تعالى- في كتابه القيم: «نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم».



(١) «التحرير والتنوير»: (١/ ٢٧).

أصل آخر من أصول التفسير وهو:
أنّ السُنّة النّبويّة ثاني الوحيين، وأنّها نابعة من القرآن وموضحة لمعانيه

السنة النبوية أول بيان للقرآن الكريم، وهو بيان يمتاز بالعصمة، فهو أول كاشف دقيق منضبط ومحفوظ يكشف عن معاني القرآن، ولأنه معصومٌ وحجةٌ؛ فإنه مكمل للهدي القرآني، بحيث يتكون منهما معًا توجه الشرع الشريف في كل مسألة أو قضية؛ بل قال الإمام السيوطي -رحمه الله- في «الإتقان»: (وقال الإمام الشافعي: «جَمِيعُ مَا تَقُوله الأمَّة شَرْحٌ لِلسُّنَّةِ، وجميعُ السُّنَّةِ شَرْحٌ للقرآنِ.

وقال أيضًا: جميعُ ما حَكَمَ به النّبيُّ ﷺ فهو مما فَهِمَهُ من القرآنِ».

قلت: ويؤيد هذا قوله ﷺ: «**إنِّي لاَ أُحِلُّ إلَّا مَا أَحَلَّ الله فِي كِتَابِهِ، وَلاَ أُحَرِّمُ إلَّا مَا حَرَّمَ الله فِي كِتَابِهِ**» أخرجه بهذا اللفظ الشافعي في «الأم»)[1].

قال العلامة الشيخ طاهر الجزائري -رحمه الله تعالى- في

(١) «الإتقان»: (٣/ ٣٣٠).

«توجيه النظر»: (قال بعض علماء الأصول: ما قال النبي ﷺ من شيء فهو في القرآن، أو فيه أصله، قرب أو بعد، فهمه من فهمه، وعمه عنه من عمه، وكذا كل ما حكم به، أو قضى به، وإنما يدرك الطالب من ذلك بقدر اجتهاده، وبذل وسعه، ومقدار فهمه، وقال سعيد بن جبير: مَا بَلَغَنِي حَدِيثٌ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى وَجْهِهِ إِلا وَجَدْتُ مِصْدَاقَهُ فِي كِتَابِ اللهِ)[1].

قلت: وهذا الذي قاله سعيد بن جبير هو منتهى المعرفة والإحاطة المستطاعة بمعاني القرآن الكريم وبمعاني الأحاديث النبوية، بحيث إنه كلما نظر ارتقى حتى يرى من أي عين من عيون القرآن وينابيعه انبثق ما بين يديه من الأحاديث.

ونعم، إنما يدرك الطالب من ذلك بقدر اجتهاده، وبذل وسعه، وقد اشتغل بهذا المعنى من المتأخرين البلاغي الكبير، جرجاني زمانه، العلَّامة إبراهيم محمد عبد الله الخولي، وأكبَّ خمسًا وثلاثين سنةً وهو يتأمل الأحاديث النبوية وكيف تنبع من القرآن، حتى سمعته مرارًا يقول: (ما من حديث إلا وأنا أعلم من أيّ آيةٍ من كتاب الله خرج)، وألَّف في ذلك كتابًا

(١) «توجيه النظر»: (٢/ ٨٩٣).

ماتعًا سماه: «السنة بيانًا للقرآن» قرأت عليه خاتمته، وأجازنا فيه، وهو مطبوع.

قال الحافظ السيوطي -رحمه الله تعالى- في «الإتقان»: (وقال ابن أبي الفضل المرسي في «تفسيره»: جمع القرآن علوم الأولين والآخرين، بحيث لم يحط بها علمًا حقيقة إلا المتكلم بها، ثم رسول الله ﷺ خَلَا مَا اسْتَأْثَرَ به -سبحانه وتعالى-، ثم وَرِثَ ذلك عنه معظم سادات الصحابة وَأَعْلامهمْ، مثل: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، حتى قال: «لَوْ ضَاعَ لِي عِقَالُ بَعِيرٍ لَوَجَدْتُهُ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى».

ثم ورث عنهم التابعون بإحسان، ثم تَقَاصَرَتِ الهِمَمُ، وَفَتَرَتِ العَزَائِمُ، وَتَضَاءَلَ أهلُ العلم، وَضَعُفُوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه، وسائر فنونه، فَنَوَّعُوا علومه، وقامت كل طائفة بفن من فنونه)[1].

قلت: وقد أدى ذلك كما هو معلوم إلى أن أنشأ المسلمون منظومات كاملة من العلوم الخادمة للبيان النبوي؛ فنشأت علوم الحديث، وعلوم الجرح والتعديل، وأثمرت ذلك النتاج العلمي الفائق، الذي لم تعرف أمة من الأمم له مثيلًا، وقد نشط الحفاظ لإفراد المؤلفات لما يتعلق بالبيان النبوي للقرآن؛

(١) «الإتقان»: (٢/ ٣٣٠).

فنشأ ما يعرف بالتفسير بالمأثور، وجمع فيه الحافظ السيوطي جمهرته الضخمة: «الدر المنثور، في التفسير بالمأثور» فاستوعب فيها من مصادر واسعة جدًّا كل حديث أو أثر له وجه تعلق بآية من كتاب الله.

ومن المتأخرين العلامة المحدث السيد عبد الله الصديق الغُماري، جمع كتابًا في التفسير بالأحاديث المرفوعة وصل فيه إلى سورة هود.

فلا بد للمفسر من الاطلاع على ما ورد في كل آية من الأحاديث والآثار، فما كان منها مرفوعًا إلى النبي ﷺ حقيقة أو حكمًا فقد وجب الوقوف عنده واعتباره، وما سوى ذلك فليتأمل، فإن كل واحد من المفسرين كان يحمل معنى الآية على جملة المعارف والعلوم التي انتهى إليها عصره، وأحاط بها زمانه، ثم القرآن أكبر من ذلك، وهو مجرد عن الزمان والمكان، لا يتقيد بهما ولا بأحوالهما، وقد بسطتُ ذلك المعنى في الأصل الآتي بعد هذا الأصل، فانظره هناك.

ثم إن هناك فائدة أخرى من الاطلاع على النقول الواردة في كل مسألة عمومًا، وهي عدم الاتكال على المدارك الذهنية للمتكلم أو المفسر منفردة، وعدم الاعتماد عليها وحدها، فلربما اطلع على ثمرات عقول السابقين، وتصفح أفكارهم

وأنظارهم فتقع له احتمالات، وتلوح له معان، لم تكن لتخطر له لو اعتمد على نظره المجرد.

وقد أشار إلى هذا المعنى العلّامة أبو بكر الرازي الحنفي المعروف بالجصاص رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب «أحكام القرآن» له، قال: (وما أدري ما الذي ألجأه إلى ذلك؟؟ وأكثر ظني فيه أنه إنما أتى به من قلة علمه بنقل الناقلين لذلك، واستعمال رأيه فيه، من غير معرفة منه بما قد قال السلف فيه، ونقلته الأمة)[1].

كما تحدث عبد القادر بن بدران في «المدخل» عن الأقوال المهجورة التي ذهب إليها بعض الفقهاء قديماً، ثم هُجِرَت بعدهم: (لكنها دونت لفائدة أخرى، وهي التنبيه على مدارك الأحكام، واختلاف القرائح والآراء، وأن تلك الأقوال قد أدى إليها اجتهاد المجتهدين في وقت من الأوقات، وذلك مؤثر في تقريب الترقي إلى رتبة الاجتهاد المطلق أو المقيد؛ فإن المتأخر إذا نظر إلى مآخذ المتقدمين، نظر فيها، وقابل بينها، فاستخرج منها فوائد، وربما ظهر له من مجموعها ترجيح بعضها، وذلك من المطالب المهمة، فهذه فائدة تدوين الأقوال القديمة عن الأئمة)[2].

---

(١) «أحكام القرآن»: (١/ ٧٢). (٢) «المدخل»: (ص٣٨٠).



والمقصود أن التشرف بمطالعة البيان النبوي الكريم من أهم ركائز المفسر، ثم من وراء ذلك يجمل بالعالم أن يطالع أقوال العلماء عمومًا، مع تجريدٍ لها، ونظرٍ فيما ورائها من طرائق الفهم والاستنباط.



أصل آخر من أصول التفسير وهو: أنَّ علم أصول الفقه اشتمل على ضوابط فهم النص وتحليله، فوجبت عناية المفسر به

من أعظم مقاصد المفسر أن يلم بالأدوات والآليات، التي يتمكَّن بها من تحليل التركيب، وتفكيك النص وفهمه.

وخدمة النص تحليلًا، وتفكيكًا، وإحاطة بأجزائه وكلياته، وسبرًا لدلالة ألفاظه وتراكيبه، وتوصُّلًا إلى أغراضه ومقاصده، وتقنينًا لأساليب ومسالك الاستنباط منه- هدف يسعى إليه المفسر، ويسعى إليه الأصولي على حد سواء.

وقد عُنِي الأصوليون بهذه القضايا، وحرَّروها، ودقَّقوا فيها تدقيقًا زائدًا، ولخصوا كل المقدمات التي يتوقف عليها تحقيق أغراضهم تلك من العلوم الأخرى، مع استقراءٍ زائدٍ يليق بمقصودهم، حتى استوى علم الأصول، ونضجت فيه تلك البحوث، وبلغت حدًّا متقدمًا جدًّا من التحرير والانضباط، حتى إنهم لخصوا بحوثًا من علوم اللغة، ومن علم النحو، ومن علوم البلاغة، وغيرها، وجعلوها أبوابًا في علم الأصول.

خذ مثالًا على ذلك باب معاني الحروف، وهو من أعظم أدوات المفسر، حتى جعله السيوطي في «الإتقان» نوعًا من علوم القرآن، فإنك لا تجد أدق ولا أعمق من بحوث الأصوليين فيه، قال الإمام السبكي في «الإبهاج»: (فإن الأصوليين دققوا في فهم أشياء من كلام العرب لم يصل إليها النُّحاة ولا اللغويون؛ فإن كلام العرب متسع جدًّا، والنظر فيه متشعب.

فكتب اللغة تضبط الألفاظ، ومعانيها الظاهرة، دون المعاني الدقيقة التي تحتاج إلى نظر الأصولي، واستقراء زائد على استقراء اللغوي، مثاله: دلالة صيغة «افعل» على الوجوب، و«لا تفعل» على التحريم، وكون «كل» وإخوتها للعموم، وما أشبه ذلك مما ذكر السائل أنه من اللغة، لو فتشت كتب اللغة لم تجد فيها شفاء في ذلك، ولا تعرضًا لما ذكره الأصوليون.

وكذلك كتب النحو، لو طلبت معنى الاستثناء، وأن الإخراج: هل هو قبل الحكم أو بعد الحكم؟؟ ونحو ذلك من الدقائق، التي تعرض لها الأصوليون، وأخذوها باستقراء خاص من كلام العرب، وأدلة خاصة، لا تقتضيها صناعة النحو، فهذا ونحوه مما تكفل به أصول الفقه)[1].

---

(١) «الإبهاج، في شرح المنهاج»: (١/ ٨).

قلت: ومدار عمل المفسر تحليل ألفاظ النص، وإدارك مدلولاتها، والإحاطة بمواقع الكلام، ومعرفة طرائق تحليله واستخراج مضامينه، فرجع الأمر إلى باب دلالة الألفاظ على المعاني، والذي هو أعمق وأدق أبواب علم الأصول، حتى قال الإمام الحبر حجة الإسلام الغزالي في «المستصفى»: (هو عمدة علم الأصول؛ لأن ميدان سعي المجتهدين في اقتباس الأحكام من أصولها، واجتنائها من أغصانها؛ إذ نفس الأحكام ليست ترتبط باختيار المجتهدين، ورفعها، ووضعها، والأصول الأربعة من الكتاب والسنة والإجماع والعقل لا مدخل لاختيار العباد في تأسيسها وتأصيلها، وإنما مجال اضطراب المجتهد واكتسابه: استعمال الفكر في استنباط الأحكام، واقتباسها من مداركها، والمدارك هي الأدلة السمعية)[1].

فلا أدري بعد ذلك، كيف يمكن لأحد أن يقدم على تفسير كتاب الله تعالى من دون نظر سابق، ولا تمرس فائق، بعلم الأصول؟!

قال العلّامة الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير»: (وأما أصول الفقه فلم يكونوا يعدونه من مادة التفسير، ولكنهم يذكرون أحكام الأوامر، والنواهي،

---

(١) «المستصفى»: (ص١٨٠).



والعموم، وهي من أصول الفقه؛ فتحصل أن بعضه يكون مادة للتفسير، وذلك من جهتين:

إحداهما: أن علم الأصول قد أودعت فيه مسائل كثيرة هي من طرق استعمال كلام العرب، وفهم موارد اللغة، أهمل التنبيه عليها علماء العربية، مثل مسائل الفحوى، ومفهوم المخالفة، وقد عدَّ الغزالي علم الأصول من جملة العلوم التي تتعلق بالقرآن وبأحكامه، فلا جرم أن يكون مادة للتفسير.

الجهة الثانية: أن علم الأصول يضبط قواعد الاستنباط، ويفصح عنها، فهو آلة للمفسر في استنباط المعاني الشرعية من آياتها)[1].

قلت: بل الأمر فيه أكبر من ذلك، حيث يستفيد الناظر في فن الأصول نسقًا كليًّا للتفكير، يرث من خلاله أصولًا كبرى للنظر، ويلتفت ذهنه إلى قضية القطعية والظنية وأثرها في الفهم، وإلى أبواب التعارض والترجيح وكيف يسلك فيها، وإلى الاستدلال وكيفية استخراج جهة الدلالة من النصوص إلى غير ذلك من أساليب الفهم، ولا تخفى أهمية ذلك لمن يتصدى للإبانة عن معاني كلام الحق جل شأنه.

---

(١) «التحرير والتنوير»: (١/ ٢٦).



أصل عظيم من أصول التفسير في: اتساع مدلولات التراكيب بحسب اتساع الأسقف المعرفية، والتراكمات الحضارية، وحاجة المفسر إلى متابعة ذلك واستيعابه

قال علماء الأصول: (الاستعمال من صفة المتكلم، والحمل من صفة المخاطب، والوضع قبلهما)[1]، والمقصود أن حمل الكلام على معانيه، وتنزيله على أوضاعه اللغوية، من صفات المتلقي أو المستمع، والمقصود أيضًا أن المستمع هو الذي يتلقى الكلام فيقوم بمهمة تحليله واستخراج مضامينه، والتغلغل فيه للوصول إلى المقاصد التي حملها المتكلم عليه، وكل ذلك محكوم بالوضع اللغوي الضابط لعملية استعمال الكلام، والذي يُؤَمِّنُ إيجاد مشترك بين المتكلم والسامع، يتم من خلاله تبادل المعاني، ذلك التبادل الذي على أساسه نهض المجتمع البشري، وتراكمت المعارف، وسرت بين البشر، فنمت الحضارة.

وهذه العملية التي يحكمها الوضع متوقفة عند تنزيل

(١) «تقريب الوصول»، لابن جزي: (ص٥٥).

كل لفظ على معناه أو معانيه التي رُكِّب بإزائها، منذ أن تم الوضع اللغوي الأول واستقر، بحيث لم يعد من الممكن التلاعب بتلك الدلالة أو تغييرها، إلا بمقدارٍ مأمونٍ ومنضبطٍ من تحريك دلالة اللفظ، بحيث ينتقل الذهن من المعنى الأصلي الذي وضع له اللفظ إلى لازم له، أو جزء من مدلوله أو ما أشبه.

ولا بد في كل ذلك، من علاقة بين المعاني التي أطلق اللفظ بإزائها، بحيث يسهل انتقال الذهن من المعنى الأصلي إلى ذلك المعنى الجديد، ولا بد من شيوعٍ واشتهارٍ لتلك التحورات الدلالية، بحيث يتواطؤ البشر على فهم المعاني المقصودة، حتى تبقى عملية الفهم والإفهام سارية، وإلا بدأ يقع بين البشر تَخَالُفٌ في مدلولات الألفاظ، يؤدي إلى اضطرابٍ في سريان المعاني، يؤذن باختلافٍ شديدٍ في إيصال مقاصد الناس بعضهم إلى بعض، ويمكن أن يؤدي ذلك إلى انهيار الاجتماع البشري بأكمله.

والمقصود أن الاحتكام إلى الوضع اللغوي في الفهم أمر خاص بالمفردات. أما الجمل فإنه يضاف فيها إلى دلالة الألفاظ المفردة تلك النسب التركيبية التي يتوقف فهمها على أمور أخرى زائدة على الوضع اللغوي، منها قوة تصور

المستمع واستحضاره للاحتمالات المتعددة التي يفيدها التركيب، ومنها معرفةٌ سابقةٌ من المستمع بأطراف من المعاني المقصودة التي أرادها المتكلم، فيدرك عند سماع التركيب أن دلالته تتسع لتتناول تلك المعاني، بحيث إن من غابت عنه تلك المعرفة، وقف عند المعاني الأولية المتبادرة من التركيب، وعند مراعاة مدلولات الألفاظ، دون أن يسبح ذهنه إلى احتمال امتداد الكلام إلى تلك المعاني، حتى إذا ما طرقت سمعه تلك المعاني المقصودة استنار التركيب في ذهنه، ولاحت له تلك الروابط التي تربط بين التركيب وبين تلك المعاني.

وهذا متفرع عن تصورٍ سابقٍ من المتكلم لتلك المعاني، بحيث يُضَمِّن التركيب ما يشير إليها، ويترك الأمر في لمحها والانتباه إليها إلى يقظة المستمع، وحضور تلك المقاصد في ذهنه.

ومعنى هذا، أن لكل مستمعٍ حظًّا من فهم التركيب، بحيث كلما اتسعت معرفته، وازدادت خلفياته، وامتد تصوره إلى معان أوسع، رأى أن التركيب يحتملها ويومئ إليها.

ولا يكاد أن يقع هذا في كلام البشر إلا نادرًا؛ لاستواء البشر في المعارف أو تقاربهم فيها، وهم في ذلك محكومون بمعطيات زمانهم، بحيث لا يخطر لأحدهم ما سوف يكشفه

الزمن من الأمور بعد زمنه؛ ليُضَمِّن كلامه إشارة إليه، فإن وُجِدَ بشريٌّ نابهٌ، أو عبقريٌّ فذٌّ، وعرف بطريقٍ ما شيئًا من الأمور المستقبلة، وأشار في كلامه إليه، ثم جاءت الأحداث موافقة له، اعتبر الناس هذا ظاهرة خارقة، تستحق الدراسة، كما وقع مثلًا حول: (تنبؤات نوستراداموس) وشأنها معروف.

فكيف بالعلم الإلهي الشامل المحيط، الذي لا تخفى عليه خافية، وهو سبحانه الذي قدر لكل زمن ما يقع فيه من أحداث، ويستجد فيه من علوم ومعارف، فإنه سبحانه ضمَّن كلامه إشارة إلى ذلك كله، بحيث كلما استجد شيء لاحت دلالة النص إليه، فالقرآن الكريم نصٌّ جاءت ألفاظه وتراكيبه من عند الله تعالى، بحيث لا تتناقض مدلولاته مع أي سقف معرفي يأتي به زمن، وليس ذلك في طوق بشر؛ بل كلما تدخلت الأهواء البشرية في الكتب السماوية، فإنها بتصوراتها القاصرة، التي لا تحيط بمستجدات الأمور في الأزمان المقبلة، تقيد طلاقة النص وإطلاقه، وتجعل أحداث الأزمان تناقضه وتصطدم به؛ ولذا صان الله القرآن وحفظه، ولذا اصطدمت نصوص الكتب السماوية المحرفة بالواقع، حتى أحدثت مشكلة العلم والدين في أوربا، وقد تناول هذا المعنى موريس بوكاي في كتابه: «القرآن والتوراة والإنجيل في ضوء العلم الحديث»، وهو مطبوع ومعروف.

والمقصود أن البشر كلما ارتقت معارفهم، واستحدثت عندهم علوم ومعطيات، وجدوا أن النص القرآني متسق مع تلك المعطيات، بينما يسقط كلام أي بشري عن مواكبة الزمن؛ لقصور تصور قائله، وعدم إحاطته عند صياغة كلامه بما سوف يقع في الأزمان المستقبلة، وكلما كان قارئ القرآن أوسع إحاطة بالعلوم والأفكار والمناهج المختلفة، اتسعت دلالة القرآن في نظره على نحو معجز، قال الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في «تاريخ آداب العرب»: (القرآن وجود لغوي، ركب ما فيه على أن يبقى خالدًا مع الإنسانية)[1].

قلت: ولذا يظل القرآن متجددًا عبر العصور، لا تنتهي عجائبه، ولا ينضب معينه، بل يزداد ثراء كلما ارتقى البشر في سلم الحضارة والمعرفة، قال العلامة الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير»: (وأما النوع الثاني من إعجازه العلمي، فهو ينقسم إلى قسمين: قسم يكفي لإدراكه فهمه وسمعه، **وقسم يحتاج إدراك وجه إعجازه إلى العلم بقواعد العلوم، فينبلج للناس شيئًا فشيئًا انبلاج أضواء الفجر، على حسب مبالغ الفهوم، وتطورات العلوم)**[2].

(١) «تاريخ آداب العرب»: (١/ ١٤).

(٢) «التحرير والتنوير»: (١/ ١٢٧).

قلت: ولو أن أحدًا من البشر قد صاغ أيَّ كلامٍ في أيِّ مقصدٍ، من جد أو هزل، ثم استطاع أن يجعله على الوصف الذي ذكرناه، من عدم التناقض مع أيِّ سقفٍ معرفيٍّ يأتي به الزمنُ لكان كلامه معجزًا، فكيف بكتابٍ حقق ذلك، ثم زاد بأن جعل لتلك التراكيب من وراء ذلك مقاصدَ عاليةً، من التشريع المعجز، والمبادئ الكبرى، والمقاصد التشريعية الراقية، مع الإخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلة، وتلخيص أصول العقائد، وتحرير أمهات الأخلاق، والرد على الفرق الضالة، والتيارات الفكرية المنحرفة عبر التاريخ البشري الطويل، وبناء النفس البشرية بكل ما يعتمل فيها من مشاعر وانفعالات، والتنبيه على أصول الاجتماع البشري، وما يسبب له الفساد والانحراف، وما يكسبه الهداية والعفاف، والتنبيه على أحوال الدار الآخرة، وما يقع فيها من أحداث كبرى، وما يؤول إليه حال البشر يومئذ من حساب أو عقاب، وجنة أو نار؛ فهذا إعجاز فوق إعجاز فوق إعجاز.

ولا بد للمفسر من أن يستوعب تلك المعارف، ويطالع العلوم المختلفة، ويلم بأصولها؛ حتى تتسع آفاق القرآن في نظره، ويرى كيف تتحقق قضية أن القرآن هداية للعالمين.



أصل عظيم من أصول التفسير في: مسالك القرآن في التأثير على النفس، وأثر ذلك في فهم النص القرآني وتحليله، ووجوب تحصيل آليات ذلك

وهو أصلٌ إن غاب عن الناس كلهم، فينبغي أن لا يغيب عن المفسر. وهو الذي يُنَقِّبُ عن مقاصد القرآن ومراميه، ومدلولات الإيحاءات والمؤثرات التي يستجلبها القرآن، ويوظفها في إثارة النفوس وتحريكها، وحملها على النهوض والنشاط والمسارعة إلى ما يريد، أو الحساسية والتوجس والفَرَقِ مما لا يريد، وكيف أن المفسر يترجم تلك الإيحاءات، ويتحسسها، ويقف عندها، ويقتنصها، ويدرك عمقها، وكيفية تسللها إلى المدارك النفسية العميقة الغائبة في اللاوعي، حتى يلقي التعبير القرآني عندها -من خلال كلماته وتراكيبه وأدواته- بتلك اللمحة التي يريد، من التشويق أو الترهيب، أو الحث أو التنفير، أو التحقير أو التعظيم، أو غير ذلك فينبغي أن يدرك المفسر تلك الإشارات، ويفقه مقاصدها، ثم يسلط الضوء عليها، ويضخمها حتى تبرز إلى دائرة الشعور، فإذا بالقارئ قد وعى عن القرآن ذلك، وإذا هو

يهتز طربًا للتشويق، ويفزع ويتزلزل كيانه للترهيب، مما ينبني عليه تحول كامل في مسار حياة القارئ المستبصر، وحتى يفقه الناس -مثلًا- عن القرآن ذلك المغزى العميق، والسر الدقيق، الكامن وراء اختلاف المقصد من تنكير لفظة الحياة في قوله سبحانه: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾[1]، وتنكيرها في قوله سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2] وأشباه ذلك في كتاب الله وما أكثره.

وليعلم أن هذا الأصل متوقف على محورين:

الأول: علوم البلاغة، وهي المعنية بأسرار التركيب اللغوي، والمعاني الكامنة وراء كل تحوير وتغيير في التراكيب، وما يترتب على كل احتمال منها من المعاني المستفادة.

والثاني: هو علم النفس؛ لأنه هو المعني بالبحث في طبيعة النفس البشرية، وكيفية صدور الأفعال منها، وكيفية استجابتها للمؤثرات المختلفة.

وقد تطور علمُ النفس، وقطع أشواطًا بعيدة في التنقيب عن أسرار النفس البشرية، وظهرت فيه مدارس ومناهج متعددة، وانشعب إلى تخصصات مختلفة معقدة، وهو في كل

(١) سورة البقرة، آية [٩٦].
(٢) سورة البقرة، آية [١٧٩].

ذلك يدرس ويبحث وفق منهج مادي تجريبي، يحاول الوصول إلى أسرار النفس من خلال التجربة وحدها، حتى تأسس العلم واستقر في غيبة من مناهجنا البحثية، المبنية على معرفة النفس، وأطوارها، وطبيعتها، وفق المصدرين المعرفيين الراسخين اللذين هما: الوحي، والوجود.

والقرآن الكريم جاء بتصور كامل للنفس البشرية، وطبيعتها، وأطوارها، وقد سار في تطبيقاته العملية، وفي سرده لمقاصده، وفي نسجه لكلماته وآياته وفق منهج ربانيٍّ راقٍ في التعامل مع النفس والتأثير فيها، بحيث إنَّ المفسر إن ألَمَّ بأطراف من ذلك، واتسعت معرفته بهذه المعاني، صار يرى وراء كلِّ كلمةٍ، وكلِّ تعبيرٍ، وكلِّ تركيبٍ قرآنيٍّ تأثيرًا نفسيًّا مقصودًا.

قال الإمام الخطابي -رحمه الله تعالى- في «بيان إعجاز القرآن»: (في إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن، منظومًا ولا منثورًا، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور،

حتى إذا أخذت حظها منه، عادت مرتاعة، قد عراها الوجيب والقلق، وتغشَّاها الخوف والفَرَق، تقشعر منه الجلود، وتفزع له القلوب، يحول بين النفس ومضمراتها وعقائدها الراسخة)[1].

وقال الإمام أبو بكر الباقلاني -رحمه الله تعالى- في «إعجاز القرآن»: (وإذا تأملت على ما هديناك إليه ووقفناك عليه فانظر، هل تجد وقْع هذا النور في قلبك، واشتماله على لُبِّك، وسريانه في حِسِّك، ونفوذه في عروقك، وامتلاءك به إيقانًا وإحاطة، واهتداءك به إيمانًا وبصيرة؟ أم هل تجد الرعب يأخذ منك مأخذه من وجه، والهزة تعمل في جوانبك من لون، والأريحية تستولي عليك من باب؟ وهل تجد الطرب يستفزك للَطِيف ما فطنت له، والسرور يحركك من عجيب ما وقفت عليه، وتجد في نفسك من المعرفة التي حدثت لك عزة، وفي أعطافك ارتياحًا وهزة؟ وترى لك في الفضل تقدمًا وتبريزًا، وفي اليقين سبقًا وتحقيقًا، وترى مطارح الجهال تحت أقدام الغفلة، ومهاويهم في ظلال القلة والذلة، وأقدارهم بالعين التي يجب أن تلحظ بها، ومراتبهم بحيث يجب أن ترتبها؟ وهذا كله في تأمل الكلام ونظامه وعجيب معانيه وأحكامه.

فإن جئت إلى ما انبسط في العالم من بركته وأنواره، وتمكن

---

(١) «بيان إعجاز القرآن»: (ص٧٠).

في الآفاق من يمنه وأضوائه، وثبت في القلوب من إكباره وإعظامه، وتقرر في النفوس من حتم أمره ونهيه، ومضى في الدماء من مفروض حكمه، وإلى أنه جُعل عماد الصلاة التي هي تلو الإيمان في التأكيد، وثانية التوحيد في الوجوب، وفُرض حفظه ووُكل الصغار والكبار بتلاوته، وأُمر عند افتتاحه بما أمر به -لتعظيمه- من قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[1] لم يؤمر بالتعوذ لافتتاح أمر كما أمر به لافتتاحه؛ فهل يدلك هذا على عظيم شأنه، وراجح ميزانه، وعالي مكانه؟)[2].

قلت: وقد وُجِدَت عندنا محاولات جادة لاستكشاف أسرار القرآن ومسالكه في التعامل مع النفس البشرية، منها كتاب «القرآن وعلم النفس» للدكتور محمد عثمان نجاتي، ومنها كتاب «التعبير القرآني والدلالة النفسية» للدكتور عبد الله محمد الجيوسي، وكلاهما مطبوع، وغيرهما كثير.

ولعل البعض من أهل علوم القرآن أن يقف هنا وقفة مستنكر، وهو يعجب من هذا الذي يريد إقحام علم النفس في العلوم القرآنية العتيقة، وأقول: لقد قامت أمة الإسلام عبر التاريخ بالاستخراج والاستنباط لمنظومات متكاملة، ودوائر

(١) سورة النحل، آية [٩٨].   (٢) «إعجاز القرآن»: (ص٢٠٢).



متداخلة من العلوم الخادمة للقرآن الكريم، حتى برزت عندهم علوم اللغة والبلاغة والأصول وغيرها، ولا بد من استمرار هذه الحركة العلمية الخادمة للقرآن عبر العصور، بحيث كلما جَدَّ جديد من العلوم أو المناهج البحثية نرى له أثـرًا أو ظلالًا في القرآن الكريم، فقد وجب على الأمة أن تدرسه، وتستوعبه، وتلخصه، وتصفيه، ثم تجعله بابًا من أبواب علوم القرآن، وإلا انقطع المسلمون عن عطاء القرآن الكريم، وحُجبوا عنه.



أصل من أصول التفسير في أن:
قصص الأنبياء مناقشة لأصول المناهج الفكرية، التي يدور حولها الفكر الإنساني عبر الزمان

جاءت قصص الأنبياء لمقاصد ربانية متعددة، منها: تثبيت فؤاد النبي ومن ثم تثبيت أفئدة ورثته، وحملة مواريث النبوة وأنوار الهداية من بعده إلى الخلق، من العلماء الهداة، والدعاة إلى الله على بصيرة، بحق قوله سبحانه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[1].

ومنها: أنها موضع نظر وتأمل لأصحاب الفكر، وأهل العقول المستنيرة، بحق قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[2] فقوله سبحانه: ﴿عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ معناه أن قصص الأنبياء محل نظر واسع؛ بحيث تستخرج منها فوائد كبرى، وقد توسع العلّامة الطاهر بن عاشور -رحمه الله تعالى- في المقدمة السابعة من مقدمات «التحرير والتنوير»[3] في ذكر فوائد قصص الأنبياء، فذكر

(١) سورة هود، آية [١٢٠].
(٢) سورة يوسف، آية [١١١].
(٣) «التحرير والتنوير»: (١/ ٦٤).

عشر فوائد مع إفادات جزلة حول قصص الأنبياء وكيفية توظيف القرآن لها.

وقد تأملتُ قصص الأنبياء في القرآن، فلاح لي فيها معنًى كليٌّ جليل، يجعل فائدتها أوسع وأكبر من أن تكون سردًا لأحداثٍ من تاريخ الأنبياء الكرام، رغم ما في ذلك من الأهمية والجلالة.

وبيان ذلك: أن كلَّ واحدةٍ من قصص الأنبياء تناقش منهجًا من مناهج الانحراف، وتتعرض بالتحليل والرد والتقويم لفلسفة من الفلسفات، وتبحث قضية كبرى من قضايا الفكر الإنساني، بحيث تشتمل قصص الأنبياء على مناقشة لأصول المناهج الفكرية المنحرفة والمتكررة عبر التاريخ الإنساني بأكمله، حيث إن البشرية في تاريخها الطويل عرفت فكرة مشابهة لفكرة العلمانية مثلًا، ففكرة العلمانية وفصل الدين عن مجالات الحياة ليست حديثة، أو وليدة عصور النهضة الأوربية بل هي منهج فكري بشري قديم، برز عند قوم شعيب عليه السلام، فقد حكى القرآن عنهم أنهم: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾[1]، فهم يتعجبون

(1) سورة هود، آية [87].

من وجـود علاقـة بين الـصلاة وبين إدارة الأمـوال، وأوجـه التعـامـل معهـا، فقد جاء قـوم شعيب فـوق الكفـر ببليـة أخــرى، وهـي أنهـم لا يـرون رابطًـا بين التقـوى والـصلاة والصلاح وبين الـشؤون المالية، وكأنهم يقـولـون: لا علاقة بين الدين وبين الاقتصاد.

وعليه؛ فإن قصة شعيب عليه السلام أرقى منهج نبوي قرآني ناقش قضية العلمانية، وأبرز المحاور المهمة التي تفكك تلك الفكرة، وتبين فسادها وضررها، وتأتي بالبديل الرباني، والتوجيه الإلهي في هذا الصدد، وبهذا يتسع لنا مجال آخر في فهـم أسبـاب اختيـار الحـق سبحـانه لقـصص معينـة من قـصص الأنبيـاء، حيث قـال تعـالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾[1]، وكأن تلك القـصص المنتقاة، التي أوردهـا القـرآن، تناقش رؤوس القضايا الإنسانية، وأصول النظريات الفلسفية، فيمكن الاكتفاء بها.

ويترتب على هـذا أن يُقْبِلَ المفسر على قصة شعيب عليه السلام، وأن يجمع كل مواضع ورودها في القرآن، ثـم يتأمل المعالجة الإلهيـة لقضيـة العلمانيـة، وكيف علَّم الله تعـالى شعيبًا عليه السلام

(١) سورة غافر، آية [٨٧].

المداخل الدقيقة لمناقشة تلك القضية، وما هي المرتكزات التي رشحها القرآن وأبرزها في مناقشة تلك القضية، بعد أن يقرأ العلمانية، وتطوراتها، ودرجاتها، قراءة دقيقة على غرار ما كتبه الدكتور عبد الوهاب المسيري في كتابه: «العلمانية الجزئية، والعلمانية الشاملة» بحيث يعرف ما ينبغي أن يبحث له عن رد وجواب في القرآن الكريم.

وبهذا تضيف قصص الأنبياء فوائد زائدة على العظة والعبرة، والتثبيت والتأسي، ويتسع مجال النظر فيها، وتنفتح لنا دراسات قرآنية جديدة في بحث أساليب القرآن في مناقشة التيارات والمناهج والفلسفات الحديثة، ويتبين أن كل قصة من قصص الأنبياء تمثل مناقشة لفلسفة أو منهج فكري مما يتكرر عبر التاريخ.

وقُلْ مثل ذلك في قصة موسى عليه السلام، حينما طلب منه قومه أن يروا الله جهرة، وكيف أنها مناقشة قرآنية مهمة، للمناهج التجريبية التي تقصر مصادر المعرفة على المنهج الحسي وحده، وقصة لوط عليه السلام مع قضايا الشذوذ والانحراف الجنسي، وقصة هود عليه السلام مع الطغيان العسكري، وأحلام السيطرة، وأوهام الإمبراطورية الزائفة، التي تحرك عددًا من الدول والقوى عبر التاريخ... وهكذا.

والمقصود أن قصص الأنبياء الكرام -عليهم صلوات الله- مشتملة على فائدة كلية، أكبر بكثير من الفائدة العينية المباشرة، المستفادة من الأحدث أو الوقائع، وتلك الفائدة هي اشتمال قصة كل نبي من الأنبياء، الذين فصل الله تعالى قصصهم في القرآن، على مناقشة وتحليل وتفكيك لمنهج من مناهج الانحراف البشري المتكرر، الذي يظهر في مختلف أطوار البشرية، في صور متعددة، تتلائم مع معطيات كل زمن وكل حضارة.

ولا شك في أن هذه القضية تحتاج إلى تتبع وتحليل، وتفصيل وتمثيل، لبيان كيفية تعرض القرآن لكل فلسفة من تلك الفلسفات بالمناقشة والرد، ولعل الله أن يعين على إفراد عدد من الدراسات والبحوث لبيان ذلك.





أصل من أصول التفسير في:
(محاور سور القرآن)
وأثرها في فهم النصوص القرآنية

لكل سورة من سور القرآن الكريم محورٌ محددٌ، تنبني السورة عليه، وتدور حوله، وتؤكده بصور ونماذج تفصيلية متعددة، وتجند لأجل خدمته وإبرازه أمثالًا، وقصصًا، ومقاطع قرآنية، مطولة أحيانًا، ومقتضبة حازمة خاطفة في أحيان أخرى، بحيث تشتمل تلك المقاطع على أوامر تشريعية، ونظم أخلاقية، ومناقشة لمناهج فكرية مختلفة وما أشبه، مما يشكل مقاصد جزئية، تتعاضد وتأتلف، وتشتبك وتتداخل، من أجل ترسيخ وتوكيد معنى ذلك المحور الرئيسي الذي تدور السورة حوله.

فكأن السورة القرآنية تتكون من مقاصد متعددة، تصب كلها في معين ذلك المحور، بحيث ينهض بناء السورة على تناول تلك المقاصد مقصدًا مقصدًا، بالإبانة والإيضاح، ثم تنتقل السورة إلى مقصد آخر فتقرره، حتى تأتي على كل المقاصد المنتقاة المنتخبة، التي تم اختيارها وجلبها من أجل

بناء معالم ذلك المحور، مما يرسخ شيئًا فشيئًا ملامح القضية الكلية التي هي محور السورة.

ولا بد من وجود تناسق وانسجام وروابط دقيقة بين كل مقصد وآخر، بحيث يمضي النظم القرآني في تقرير مقصد معين، حتى إذا ما شارف على استيفائه جعل يوجه الأنظار إلى تباشير المقصد التالي، وربما انتقل القرآن فجأة إلى مقصد آخر، من حيث إنه من مقتضيات الفكرة الرئيسية للسورة.

فسورة الفاتحة مثلًا مستهل القرآن الكريم، وأول ما يقع في أذن المكلف أو المخاطب من كلام الحق جل شأنه، فمحور السورة قوله سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(١)، حيث تدور السورة حول معنى العلاقة بين المخلوق والخالق، وأنها عبادة من المخلوق، وإعانة من الخالق، ثم إن القرآن كله تفصيل لأوجه تلك العلاقة وصورها.

ومحور سورة البقرة قوله سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٢)، إذ تدور سورة البقرة حول قضية الإسلام لله، وكيف أنها المدخل الأعظم لتحقيق قضية العبودية والإعانة التي جاءت بها سورة الفاتحة، وأن الأمر

---

(١) سورة الفاتحة، آية [٥].

(٢) سورة البقرة، آية [١٣١].

فيها ينهض على أساس راسخ من التسليم المطلق لله بالعظمة والربوبية، واستحقاق العبادة، وأنه وحده الحاكم، وأن التشريع والأمر والنهي له وحده، حتى إذا ما ثبتت قضية التسليم واستقرت في العقل، وانعقد عليها الجنان، أمكن نقل هذا المكلف إلى قضية الاصطفاء، وهي محور سورة آل عمران؛ إذ تدور السورة كلها حول آية محورية واحدة وهي قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1]، حتى إذا ما ثبتت قضية الاصطفاء، وسلمت لله رب العالمين، نقلنا إلى نوع خاص من الاصطفاء، وهو تباين طبائع الخلق، وأن لكل جنس خصائص معينة، تنبني عليها حقوق معينة، فتأتي سورة النساء لتعالج قضية حفظ خصائص الخلق، وما يترتب على تلك الخصائص من تكاليف متعددة، وحقوق متباينة، ملائمة للخصائص المذكورة، فلكل مخلوق ولكل فئة خصائص معينة، يجب أن تحفظ وتستقر، وعمارة الدنيا واستقرار المجتمعات متوقفان على مراعاة تلك الخصائص؛ ولذا فإن محور سورة النساء قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ

---

(١) سورة آل عمران، آية [٣٣، ٣٤].

نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾[1].

فكأن كل سورة من سور القرآن تعالج قضية كبرى، ابتداء بقضية العبودية في سورة الفاتحة، وقضية الإسلام لله في سورة البقرة، وقضية الاصطفاء في سورة آل عمران، وقضية حفظ الخصائص والحقوق في سورة النساء، وقضية التواصل في سورة المائدة، وهكذا إلى تمام نحو مائة قضية تمثل أصول الأديان السماوية، وتمثل أهم الأفكار والقضايا التي جاء من أجلها الدين عمومًا، في تصوير وتكييف صور علاقة الخلق بالحق.

فإذا ما أدرك المفسر محور كل سورة عرف كيف يوظف آياتها ومقاطعها في ذلك الإطار، ولاحت له أسرار جديدة في نسج كل سورة وكيفية بنائها، ولمعت له بوارق من مناسبة الآيات والمقاطع التي تتكون منها السورة، ولربما تفاوتت أنظار العلماء في الآية التي تعتبر محورًا لكل سورة، ولربما جرى نقاش مطول في تحرير الفارق بين المحور والمقصد، ولربما اختلفت أنظار العلماء في تحديد محور كل سورة، فيحدث عندنا ثراءٌ في البحوث القرآنية، تنجلي به أبعاد من أسرار

(١) سورة النساء، آية [٣٢].

القرآن لم تظهر من قبل؟، فإن هذا الباب مستحدث، لم أر أحدًا نبه إليه، وما رأيت لأحد كتابة في هذا الباب من أبواب علوم القرآن، وقد أفردت مؤلفًا أسميته: «الإمعان، في محاور سور القرآن» أسأل الله أن يتمه لي بخير.

ثم إني اطلعت هنا مؤخرًا على كتاب اسمه: «نظرة العجلان، في أغراض القرآن» تأليف الأستاذ محمد بن كمال أحمد الخطيب، طبع قديمًا في المطبعة العصرية بدمشق الشام، وقدَّم له العلامة الشيخ مصطفى الزرقا، يتكلم فيه على وحدة موضوع كل سورة، وتناسب أغراضها، وتسلسلها، وقد صرَّح الشيخ مصطفى الزرقا بأن هذا موضوع بكر، لم يطرق من قبل بهذه الصورة.

وأقول: إن الكتاب جيد، وهو قريب مما أتكلم عنه، رغم أنه لم يمس المعنى المحدد الذي أريد لفت النظر إليه هنا، وهو على كل حال خطوة على الطريق الذي نتحدث هنا عنه.



أصل آخر من أصول التفسير في: (المبادئ القرآنية)، أو: (الدلالة المستقلة) وأنها مسلك عملي انتهجته الأمة في الانتفاع بآيات القرآن عبر الزمان

ما زال العلماء يدققون في أساليب فهم التراكيب القرآنية، وتحرير المناهج والأدوات التي يمكن من خلالها الانتفاع بكل لفظة، أو تركيب من القرآن الكريم، بوجوه متعددة؛ ولذا فقد أقاموا لفهم العبارة أو الجملة القرآنية مسالك منضبطة، ومراحل متعاقبة من النظر، تبدأ بتحديد معاني المفردات، ثم مراعاة المعاني المحتملة من النسب التركيبية، ثم يتحدد واحد من تلك المعاني أو أكثر من خلال: السياق، والسباق، واللحاق، ومن ثم فقد شكلت قضية السياق ضابطًا مهمًّا من ضوابط فهم النصوص والجمل القرآنية.

قال العلامة الشاه ولي الله الدهلوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الفوز الكبير»: (ينبغي للمفسر العادل أن ينظر إلى شرح الغريب نظرتين، ويزنه وزنًا علميًّا مرتين، مرة في استعمالات العرب؛ حتى يعرف أي وجه من وجوهها أقوى وأرجح، ومرة ثانية في مناسبة السابق واللاحق، بعد إحكام مقدمات هذا العلم،

وتتبع موارد الاستعمال، والفحص عن الآثار؛ حتى يعلم أي صورة من صورها أولى وأنسب)[١].

لكن عند النظر في مسالك الأقدمين من سلف هذه الأمة وطبقات علمائها عبر الزمان، نجد أن لهم منهاجًا عمليًّا، فريدًا وعجيبًا، انتهجوه في الانتفاع بالجمل القرآنية، على نحو يجعل لها في سياقها معنًى يتسق معه، ويجعل لها -بعيدًا عن السياق- معنًى آخر مستقلًّا ومجردًا، له وصف القداسة والربانية والحجية، مع شيء من التجريد، يجعل العبارة القرآنية مبدأً في حد ذاته، بل إن هذا النسق من النظر في الجمل القرآنية سابق لهؤلاء جميعًا؛ إذ أثر عن المصطفى ﷺ ذلك كما سيأتي.

قال العلامة الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير»: (ويدل لتأصيلنا هذا، ما وقع إلينا من تفسيرات مروية عن النبي ﷺ لآيات، فنرى منها ما نوقن بأنه ليس هو المعنى الأسبق من التركيب، ولكنا بالتأمل، نعلم أن الرسول -عليه الصلاة والسلام- ما أراد بتفسيره إلا إيقاظ الأذهان إلى أخذ أقصى المعاني من ألفاظ القرآن، مثال ذلك: ما رواه أبو سَعِيد بن الْمُعَلَّى قال: دعاني رسول الله وأنا في الصلاة،

(١) «الفوز الكبير»: (ص١٨١).



فلم أجبه، فلما فرغت أقبلت إليه فقال: «**مَا مَنَعَكَ أَنْ تُجِيبَنِي؟**» فقلت: يا رسولَ اللهِ كُنْتُ أُصَلِّي، فقال: «**أَلَمْ يَقُلِ اللّهُ تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾[1]، فلا شك أن المعنى المسوقة فيه الآية هو الاستجابة بمعنى الامتثال كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾[2]، وأن المراد من الدعوة الهداية، كقوله: ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾[3]، وقد تعلق فعل ﴿دَعَاكُمْ﴾ بقوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[4]، أي: لما فيه صلاحكم، غير أن لفظ الاستجابة لما كان صالحًا للحمل على المعنى الحقيقي أيضًا، وهو إجابة النداء، حمل النبي ﷺ الآية على ذلك، في المقام الصالح له، بقطع النظر عن المتعلق، وهو قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

وكذلك قوله ﷺ: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا** ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾»[5]، إنما هو تشبيه الخلق الثاني بالخلق الأول؛ لدفع استبعاد البعث، كقوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[6]، وقوله:

---

(١) سورة الأنفال، آية [٢٤].
(٢) سورة آل عمران، آية [١٧٢].
(٣) سورة آل عمران، آية [١٠٤].
(٤) سورة الأنفال، آية [٢٤].
(٥) سورة الأنبياء، آية [١٠٤].
(٦) سورة ق، آية [١٥].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾[1]، فذلك مورد التشبيه، غير أن التشبيه لما كان صالحًا للحمل على تمام المشابهة، أعلمنا النبي ﷺ أن ذلك مراد منه، بأن يكون التشبيه بالخلق الأول شاملًا للتجرد من الثياب والنعال.

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ﴾[2] فقد قال النبي ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه لما قال له: لا تصل على عبد الله بن أُبَيّ بن سَلول فإنه منافق، وقد نهاك الله عن أن تستغفر للمنافقين، فقال النبي ﷺ: «**خَيَّرَنِي ربي وسأزيد على السبعين**» فحمل قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾[3] على التخيير، مع أن ظاهره أنه مستعمل في التسوية، وحَمَل اسم العدد على دلالته الصريحة، دون كونه كناية عن الكثرة كما هو قرينة السياق؛ لما كان الأمر واسم العدد صالحين لما حملهما عليه، فكان الحمل تأويلًا ناشئًا عن الاحتياط.

ومن هذا قول النبي ﷺ لأم كلثوم بنت عقبة بن معيط، حين جاءت مُسْلِمة، مهاجرة إلى المدينة، وأبت أن ترجع إلى المشركين، فقرأ النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ

(١) سورة الروم، آية [٢٧]. (٢) سورة التوبة، آية [٨٠].
(٣) سورة التوبة، آية [٨٠].

﴿ٱلْمَيِّتِ﴾[1]، فاستعمله في معنًى مجازي هو غير المعنى الحقيقي الذي سيق إليه.

وما أرى سجود النبي ﷺ في مواضع سجود التلاوة من القرآن، إلا راجعًا إلى هذا الأصل، فإن كان فهمًا منه رجع إلى ما شرحنا تأصيله، وإن كان وحيًا كان أقوى حجة في إرادة الله من ألفاظ كتابه، ما تحتمله ألفاظه مما لا ينافي أغراضه.

وكذلك لما ورد عن أصحاب النبي ﷺ ومن بعدهم من الأئمة، مثل ما روي أن عمرو بن العاص أصبح جنبًا في غزوة في يوم بارد، فتيمم وقال: الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[2]، مع أن مورد الآية أصله في النهي عن أن يقتل الناس بعضهم بعضًا.

ومن ذلك أن عمر لما فُتحت العراق، وسأله جيش الفتح قسمة أرض السواد بينهم قال: (إن قسمتها بينكم لم يجد المسلمون الذين يأتون بعدكم من البلاد المفتوحة مثل ما وجدتم!! فأرى أن أجعلها خراجًا على أهل الأرض، يقسم على المسلمين كل موسم، فإن الله يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾[3]، وهذه الآية نزلت في فَيْء قريظة والنضير، والمراد

(١) سورة الأنعام، آية [٩٥]. (٢) سورة النساء، آية [٢٩].
(٣) سورة الحشر، آية [١٠].

بالذين جاءوا من بعد المذكورين هم المسلمون الذين أسلموا بعد الفتح المذكور.

وكذلك استنباط عمر رضي الله عنه ابتداء التاريخ بيوم الهجرة من قوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾[1]؛ فإن المعنى الأصلي: أنه أسس من أول أيام تأسيسه، واللفظ صالح لأن يحمل على أنه أسس من أول يوم من الأيام، أي أحق الأيام أن يكون أول أيام الإسلام فتكون الأولية نسبية.

وقد استدل فقهاؤنا على مشروعية الجعالة، ومشروعية الكفالة في الإسلام بقوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾[2] كما تقدم في المقدمة الثالثة، مع أنه حكاية قصة مضت، في أمة خلت، ليست في سياق تقرير ولا إنكار، ولا هي من شريعة سماوية، إلا أن القرآن ذكرها ولم يعقبها بإنكار.

ومن هذا القبيل: استدلال الشافعي على حجية الإجماع وتحريم خرقه بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ

(١) سورة التوبة، آية [١٠٨].

(٢) سورة يوسف، آية [٧٢].

وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾[1] مع أن سياق الآية في أحوال المشركين، فالمراد من الآية مشاقة خاصة، واتباع غير سبيل خاص، ولكن الشافعي جعل حجية الإجماع من كمال الآية) انتهى كلام ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وأقول: بل قال شيخنا العلَّامة الشيخ عبد الغفور محمود مصطفى جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه: «بحوث في علوم القرآن الكريم»: (إن القضية -قضية الأخذ بالمعاني المختلفة والقول بأنها مرادة- قضية مقبولة عقلًا، ولغة، وبلاغة، وشرعًا، على اختلاف المذاهب، وعلى ذلك جرى عمل المفسرين، فلا أحصي ما جمعته لنفسي من شواهد تشهد لهذه القضية، يميزها بسهولة من يريد، شواهد من التفسير المرفوع، وشواهد من تفسيرات الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، وشواهد من تفسيرات التابعين أيضًا، ولا أحصي صنيع الفقهاء على اختلاف مذاهبهم؛ فبهذا كله ثبتت القضية، وتقررت أيما تقرر، وعرفنا أن القول بالمعاني المتعددة سواء كانت في درجة أو كان بعضها أرجح قول مأخوذ به)[1].

قلت: ومن هنا برزت قضية عرفت بقضية: (الدلالة المستقلة في القرآن الكريم)، وهي رغم كونها مستعملة عملًا

(١) «بحوث في علوم القرآن الكريم»: (ص٢١٨، ص٢٢٧).

وتطبيقًا عند العلماء جيلًا من وراء جيل، وطبقة من وراء طبقة، حتى أثمرت عند الأمة -كما تبين- محاور علمية في الفنون المختلفة نابعة من معين القرآن، إلا أنه لم يقع النظر في هذه الظاهرة القرآنية على وجه التقعيد لها، والتقنين لمسالكها، والتدقيق في كيفية الاستفادة منها على نحو منظم مقصود.

وقد كان أول من درس ظاهرة المبادئ القرآنية فيما أفادنا سماحة شيخنا، العلامة الجليل، الإمام الشيخ علي جمعة -مفتي الديار المصرية- هو الأستاذ الدكتور محمد السيد بدر -رحمه الله تعالى- أستاذ ورئيس قسم فلسفة القانون وتاريخه، بكلية الحقوق، جامعة عين شمس، في كتاب له أسماه: «المبادئ العامة في القرآن الكريم» طبع بالقاهرة سنة ١٩٩٦م، في ثلاثمائة وثلاث وخمسين صفحة، دون دار نشر، وتكلم عن المبادئ القرآنية من الصفحة: (٢٩٢) إلى الصفحة رقم: (٣٥٣).

ثم كتب فيها سماحة شيخنا العلامة الشيخ علي جمعة مقالًا مهمًّا جدًّا، نُشر في الموسوعة القرآنية المتخصصة، الصادرة عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية[1]، أصَّل فيه لمعنى المبدأ القرآني، واستخرج له تعريفًا، وبين خصائصه،

(١) «الموسوعة القرآنية المتخصصة»: (ص٨٢، ص٩٤).

وفرق بينه وبين الحقائق الإيمانية أو الكونية، وبينه وبين الحكم الشرعي، والقاعدة الفقهية، والقاعدة الأصولية، ثم أورد بعض المبادئ القرآنية وشرحها، ثم قال: (المبادئ القرآنية التي نوردها إنما هي على سبيل المثال، تنبيهًا لهذا الجانب العظيم من القرآن الكريم، وهي تحتاج إلى تتبع واستقصاء مستقل، وبحث خاص، يقوم بعد استقرائها بإيراد كلام أهل التفسير عنها، ثم يبين عناصر كل مبدأ وما يلزمه من مقدمات، وما يترتب عليه من نتائج، ثم يقوم ببيان العلاقات البينية بين كل هذه المبادئ؛ لبناء النموذج المعرفي، ثم بيان كيفية تشغيلها في المجالات المختلفة: السياسة، والقانون، والاجتماع البشري، والتربية، والفكر، والعبادة، والعقيدة، والدعوة... إلخ).

ثم إن سماحته أشار على صديقنا فضيلة الشيخ: مصطفى عبد الكريم كاسب أن يدرس تلك القضية، فكتب فيها رسالته التي نال بها درجة التخصص (الماجستير) من قسم التفسير وعلومه بكلية أصول الدين بالقاهرة.

قال فضيلة الشيخ مصطفى عبد الكريم كاسب في كتابه «المبادئ العامة في القرآن الكريم»: (وذلك لأن فكرة المبادئ القرآنية تقوم على استخراج نصوص وجمل من الآيات، لها

معان مفهومة، بدون النظر إلى سياق الآيات، من حيث إن لهذه النصوص والجمل معاني واضحة ومفهومة، تفهم دون النظر إلى السياق، ولا تناقضه أو تخالفه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1]، وقوله أيضًا: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2]، وقوله تعالى أيضًا: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾[3] إلى غير ذلك من المبادئ القرآنية.

وذلك أن القرآن الكريم كتاب هداية، أنزله الله تعالى لأجل الاسترشاد والاهتداء به، ولا يكون ذلك إلا بكثرة المعاني التي تحتملها ألفاظه، فالجملة القرآنية قد تحتمل معاني كثيرة وتكون كلها مرادة، من هنا فإنني أرى أن لفهم الجملة القرآنية مستويات:

فالمستوى الأول، هو: فهم الجملة القرآنية بمعناها التي وردت له في سياقها، وهذا ما عليه معظم القرآن الكريم.

والمستوى الثاني، هو: فهم الجملة القرآنية بمعناها التي وردت له بدون اعتبار سياقها ما لم يخالف هذا الفهم السياق أو يناقضه أو يضاده، وهذا الأمر وارد في بعض غير قليل من

(١) سورة الأنعام، آية [١٦٤]. (٢) سورة الزمر، آية [٩].
(٣) سورة المائدة، آية [٩٥].



آيات القرآن الكريم، ومنه المبادئ القرآنية.

أما المستوى الثالث، فهو: فهم الجملة القرآنية بغير معناها التي وردت له وبدون اعتبار سياقها، وهذا الأمر غير وارد أصلًا، وغير جائز قطعًا، وهو ما عليه تفاسير الباطنية وغيرها من التفاسير المنحرفة.

والكلام ليس عن المستويين الأول والثالث فهما واضحان ولا يحتاجان إلى شرح وبيان، كما أنهما ليسا من محل بحثي هذا.

أما المستوى الثاني فهو الذي أريد أن أوضحه وأبيّنه، وأذكر له بعض الأدلة والأمثلة التي تؤكده، مع تعضيد ذلك بنقول العلماء؛ وذلك لأن المستوى الثاني وهو (فهم الجملة القرآنية بمعناها التي وردت له بدون اعتبار سياقها) هو عينه المبادئ القرآنية.

فالمبادئ القرآنية إنما هي استعمال للجملة القرآنية بمعناها الذي وردت له، بدون اعتبار سياقها، فمثلًا قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾[1] هذه الجملة استعمالها في العفو عما سلف ووقع قبل العلم بالتحريم، وفي سياقها تكون في حكم قتل الصيد للمحرم، وحكم من فعل ذلك وبيان كفارته، وأن

(١) سورة المائدة، آية [٩٥].

الله تعالى قد عفا عما سلف ووقع قبل العلم بتحريم ذلك فحسب. أما بدون اعتبار سياقها فهي مبدأ عام من مبادئ القرآن الكريم، يقول بعدم رجعية التشريع إلى الماضي، فيجب عدم تطبيق القانون بأثر رجعي، ولهذا المبدأ تطبيقات في مجالات مختلفة.

فالجملة القرآنية هنا تحتمل معنيين: أحدهما في سياق الآية، والثاني عام بدون اعتبار هذا السياق، وكلاهما صحيح ومراد، ومثل ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾[1]، وغير ذلك من المبادئ القرآنية)[2].

قلت: فلا بد للمفسر من النظر الدقيق في هذا النسق من البحوث القرآنية التي يتمكن مع تقليب وجوه النظر في العبارة القرآنية، بحيث يستمد منه خيوطًا تنتهي إلى السياسة، والاجتماع، والعقيدة، والفكر، والدعوة وغير ذلك، مما ينزل معه القرآن منزلته، ويصير موجهًا للمجتمع الإنساني في أوجه نشاطه المختلفة.



(١) سورة الرحمن، آية [٦٠].

(٢) «المبادئ العامة في القرآن الكريم»: (ص١٠) بتصرف.



أصل آخر من أصول التفسير:
(السنن الإلهية) وأنها القوانين الإلهية الحاكمة للاجتماع البشري، والسارية في الكتاب الإلهي، وأنها علم أصيل من علوم القرآن

للبشرية تجربة طويلة مع الهداية، من خلال مواكب الرسل الكرام، وسلاسل الرسالات السماوية، والمواقف الفاصلة التي خاضها الأنبياء وحملة الدعوة مع أقوامهم، والعوائد التي أجراها الحق سبحانه بانتظام على البشر في أثناء ذلك، والتي شكلت أصولًا ضابطة لتقلبات الاجتماع البشري عبر الزمن، يمكن من خلال رصدها وتتبعها، واستقصائها وتحليلها، وتوظيفها، فَهْمُ أسبابِ نهوض الحضارات، وطبيعة المؤثرات التي تغير توجه الاجتماع البشري، ويمكن أن نحيط علمًا بآفاق من العلوم والمعارف لا تخطر على بال. وما زال القرآن الكريم يحيل إلى تلك العوائد الإلهية في التعليل للأحداث الكبرى، التي نصر الله فيها أقوامًا دون أقوام، أو أمضى حدثًا، أو أنفذ مرادًا، أو أهلك أمة، أو غير ذلك، مع اتصاف تلك العوائد بالثبات، والاطراد، والعموم، مما يشكل ظاهرة قرآنية تعد عند التأمل من أصول الهداية القرآنية.

والعوائد الإلهية المذكورة كثيرة، سارية في ثنايا القرآن الكريم، منها سُنّة التكامل، ومنها سنة التدافع، ومنها سنة التوازن، ومنها سنة التعارف، ومنها سُنّة الله في الأسباب والمسببات، وفي الابتلاء والفتنة، وفي الجزاء وأنه من جنس العمل، وفي النصر والتمكين، وفي هلاك الأمم، إلى غير ذلك مما يبلغ نحوًا من خمسين سنة من السنن الإلهية، التي يمكن تصنيفها إجمالًا في: (سنن كونية، وسنن نفسية، وسنن اجتماعية، وسنن تاريخية) تشكل الأصول الإسلامية لمنظومة كاملة من العلوم الاجتماعية والإنسانية التي يمكن أن تنشأ معتمدة على مصادرنا، ومناهجنا، وطرائقنا وأساليبنا في البحث والتنظير والاستنباط، حتى إن سماحة شيخنا الجليل، العلّامة الإمام الشيخ علي جمعة -مفتي الديار المصرية- أشار في كتاب «سمات العصر» إلى: (أن هذا العلم قد يصل بنا إلى بناء علم أصول فقه الحضارة بعد أن وضع الإمام الشافعي علم أصول فقه النص الشريف)[١].

ورغم أن القرآن سمَّى تلك العوائد بسنة الله، وأحال إليها، وعلل بها، ونبه إليها؛ إلا أنه لم يحدث عند المسلمين التفات إليها على نحو من التأصيل والجمع والدراسة

(١) «سمات العصر، رؤية مهتم»: (ص٣٦).

والتوظيـف إلا مؤخرًا جدًّا على يـد الأسـتاذ الإمام محمـد عبده رَحِمَهُ اللَّهُ.

قـال رحمه الله تعـالى: (إن إرشـاد الله إيانـا إلى أن له في خلقه سننًا يـوجب علينـا أن نجعل هـذه السـنن علمًا من العلوم المدونة؛ لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه كما فعلوا في غير هـذا العلم من العلوم والفنون، التي أرشـد إليها القرآن بالإجمال، وبينها العلماء بالتفصيل، عملًا بإرشاده، كالتوحيد، والأصول، والفقه)[1].

وأقـول: لقـد خبت هـذه الجـذوة بعـده، ولم ينهـض أحـد لالتقاط تلك الإشارة والعكوف على توسيعها وتعميقها، إلى أن أفرد لهـا العلامة الشيخ محمـد الصادق عرجون مؤلفًا مستقلًّا، اسمه: «سنن الله في المجتمع من خلال القرآن»، ثم تداول العلماء هذا العلم من بعد، فكتب فيه السيد محمد باقر الصدر كتابًا، اسمه: «السنن التاريخية في القرآن الكريم»، ثم الدكتور عبد الكريم زيدان في كتابه: «السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية»، والـدكتور مصطفى الشكعة في كتابه: «السنن الإلهية في رحاب القرآن

(١) «الأعمال الكاملة للشيخ الإمام محمد عبده»: (٥/ ٩٥).

الكريم»، ثم الأستاذ محمد هيشور في كتابه: «سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها»، والدكتور مجدي محمد محمد عاشور في كتابه: «السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم، أصول وضوابط»، والدكتور سيف عبد الفتاح في كتابه الماتع: «مدخل القيم».

ولا شك في أن الاطلاع على هذا العلم، ومتابعة أبحاثه وتشعباتها التي تتسلل إلى علم النفس، وعلم الاجتماع، وفلسفة التاريخ وغيرها- من أوجب الواجبات على المفسر؛ لما أنها تفتح له آفاق فهم وإدراك لمقاصد القرآن الكريم، وقد عد الأستاذ الإمام محمد عبده هذا العلم من الأمور التي لا تتم المراتب العليا للتفسير إلا بها، قال -رحمه الله تعالى- في مقدمة «تفسير المنار»: (ثالثها: علم أحوال البشر، فقد أنزل الله هذا الكتاب وجعله آخر الكتب، وبين فيه ما لم يبينه في غيره، بين فيه كثيرًا من أحوال الخلق، وطبائعهم، والسنن الإلهية في البشر، قص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسنته فيها.

فلا بد للناظر في هذا الكتاب من النظر في أحوال البشر في أطوارهم وأدوارهم، ومناشئ اختلاف أحوالهم، من قوة وضعف، وعز وذل، وعلم وجهل، وإيمان وكفر، ومن العلم

بأحوال العالم الكبير علويه وسفليه، ويحتاج في هذا إلى فنون كثيرة، من أهمها التاريخ بأنواعه.

وقال: أنا لا أعقل كيف يمكن لأحد أن يفسر قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[1] وهو لا يعرف أحوال البشر؟ وكيف اتحدوا؟ وكيف تفرَّقوا؟ وما معنى تلك الوحدة التي كانوا عليها؟ وهل كانت نافعة أو ضارة؟ وماذا كان من آثار بعثة النبيين فيهم؟)[2].



---

(١) سورة البقرة، آية [٢١٣].

(٢) «تفسير المنار»: (١/ ٢٠).



أصل آخر عظيم من أصول التفسير: علم (المقاصد القرآنية) وأنه من أعظم أدوات المفسر

القرآن الكريم كتاب إلهيٌّ جليل، أنزله الله تعالى مشتملًا على خلاصة هداياته لجنس البشر، وجعله متضمنًا للمقاصد الشريفة العظمى، والمطالب الجليلة العالية، كاشفًا للإنسان أبعاد القضايا الكبرى التي يرتبط بها، من مثل قضية: الألوهية، والوحي، والنبوة، والهداية، والإعجاز، والتشريع، والقيم، والنظم، والآداب، وأصول الاجتماع الإنساني، وبناء النفس البشرية وتزكيتها، وعمارة الأرض، وحقوق الأكوان، وعلاقات الأمم، إلى غير ذلك من المقاصد القرآنية الراقية.

وهناك فارق بين علم المقاصد القرآنية، وعلم مقاصد الشريعة، والعلاقة بينهما العموم والخصوص المطلق؛ حيث إن كل مقصد من مقاصد الشريعة هو أيضًا مقصد قرآني، وتبقى مقاصد أخرى للقرآن الكريم ليست من قبيل التشريع، بل من قبيل الآداب أو القيم أو العقائد وهكذا. أما علم مقاصد الشريعة فقد نشط الأصوليون في دراسته، وكتب في ذلك الأقدمون لمحات شكلت جذور علم مقاصد الشريعة، على غرار جمل وقعت عند إمام الحرمين في «البرهان»، والإمام

الغزالي في «شفاء الغليل»، حتى تكامل هذا العلم شيئًا فشيئًا على يد الإمام المجتهد العز بن عبد السلام في كتابه: «قواعد الأحكام، في مصالح الأنام»، ثم الإمام القرافي في كتاب: «الفروق»، ثم الإمام الشاطبي -وهو من مؤسسي هذا العلم- في كتاب: «الموافقات»، ثم من المتأخرين العلامة الطاهر بن عاشور في كتابه: «مقاصد الشريعة الإسلامية» وهو الذي جعله علمًا مستقلًّا منفصلًا عن علم الأصول، ثم الأستاذ الدكتور سيف عبد الفتاح في كتابه: «مدخل القيم»، ثم عشرات من الباحثين، حتى بلغ علم (مقاصد الشريعة) مدًى بعيدًا من التحرير والنضج. ولا شك في أن القرآن أوسع من الشريعة، بل ما هي إلا فرع من فروعه، وجدول منحدر من بحوره، ثم هو من وراء ذلك مشتمل على العقائد، والآداب، والنظم، وغيرها مما ذكرنا بعضه قبل قليل، وعليه فقد كان من أوجب الواجبات إنشاء علم يسمى: علم (المقاصد القرآنية) يبحث في مقاصد القرآن الكريم، ويجعلها مستويات بعضها فوق بعض، ويُقَعِّد لكل مستوى منها، ويصل تلك المستويات بمناحي الفكر والحياة، بحيث تنجلي المقاصد القرآنية الأصلي منها والفرعي، وتتضح مراميه التي يبني من خلالها قضية الهداية في النفوس، والقلوب، والعقول، والأمم، والشعوب.

وقد كان المألوف عند الأقدمين من المفسرين وغيرهم، التعبير عن تلك المقاصد إجمالًا، بأن الوحي الشريف - يريدون القرآن- اشتمل على ثلاثة أمور: التوحيد، والأحكام، والقصص. قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «فتح الباري»: (وبيانُ كونِها اشتملت على مقاصدِ القرآنِ أنها -يعني المقاصد- تَنْحَصِرُ في علوم التَّوحيدِ والأحكامِ وَالأخبارِ...إلخ)[1].

ولعل أول من اقتنص الفكرة وقعد لها هو الإمام الحجة أبو حامد الغزالي ت٥٠٥هـ -رحمه الله تعالى-، حيث جعل للقرآن ستة مقاصد: ثلاثة مهمة، وثلاثة متمة، وذلك في كتابه: «جواهر القرآن»، قال فيه: (الفصل الثاني: في حصر مقاصد القرآن ونفائسه، سر القرآن، ولبابه الأصفى، ومقصده الأقصى: دعوة العباد إلى الجبار الأعلى، رب الآخرة والأولى، خالق السماوات العلى، والأرضين السفلى، وما بينهما، وما تحت الثرى؛ فلذلك انحصرت سور القرآن وآياته في ستة أنواع: ثلاثة منها هي السوابق، والأصول المهمة، وثلاثة هي الروادف، والتوابع المغنية المتمة.

أما الثلاثة المهمة فهي: تعريف المدعو إليه، وتعربف

(١) «فتح الباري»: (٨/ ٧١٩).

الصراط المستقيم الذي تجب ملازمته في السلوك إليه، وتعريف الحال عند الوصول إليه.

وأما الثلاثة المغنية المتمة، فأحدها: تعريف أحوال المجيبين للدعوة، ولطائف صنع الله فيهم، وسره ومقصوده: التشويق والترغيب، وتعريف أحوال الناكبين والناكلين عن الإجابة، وكيفية قمع الله لهم، وتنكيله بهم، وسره ومقصوده: الاعتبار والترهيب.

وثانيها: حكاية أحوال الجاحدين، وكشف فضائحهم وجهلهم، بالمجادلة والمحاجة على الحق، وسره ومقصوده في جنب الباطل: الإفضاح والتنفير، وفي جنب الحق: الإيضاح والتثبيت والتقهير.

وثالثها: تعريف عمارة منازل الطريق، وكيفية أخذ الزاد والأهبة والاستعداد، فهذه ستة أقسام)[1].

ثم مضى رَحِمَهُ اللهُ في شرح هذه الأصول على مدار الكتاب، حيث بنى الكتاب بأكمله على هذا المعنى.

ومن عجب أن الحافظ السيوطي -رحمه الله تعالى- قد نقل كلام الغزالي غير مرة في «الإتقان»[2]، ولم يستوقفه ذلك،

(١) «جواهر القرآن»: (ص٢٣).

(٢) «الإتقان، في علوم القرآن»: (٢/ ٤١٩، ٤٢١).

ولا انتبه إلى جعله من علوم القرآن، مع ولعه بتنويع علوم القرآن وتكثيرها، كما يُعْلم من مطالعة مقدمات «الإتقان».

ثم رأيت في ترجمة الإمام المجد الفيروزآبادي ت٨١٦هـ صاحب: «القاموس المحيط» أن له كتابًا اسمه: «الدر النظيم، المرشد إلى مقاصد القرآن الكريم»[١] ولم أره، ولم أدر مقصده ولا منحاه، لكن أظنه مفيدًا جدًّا، يتوجب البحث عنه، فقد ترجم المؤرخ الشيخ: عبد الوهاب بن عبد الرحمن البريهي السكسكي ت٩٠٤هـ في تأريخه -وهو مطبوع- للمجد الفيروزآبادي، فنقل في آخر ترجمته أبياتًا من تأليفه كأنها تلخيص لكتابه المذكور، قال البريهي: (ومن شعره في ذكر ما في القرآن العظيم:

ألا إنَّما القُرآن تسعة أحرف
أتيت بها في بيت شعر بلا خللْ
حلالٌ، حرامٌ، محكمٌ، متشابهٌ
بشيرٌ، نذيرٌ، قصةٌ، عظةٌ، مَثَلْ)[٢]

ثم رأيت الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ يقول في كتاب «إرشاد الثقات»: (وأما مقاصد القرآن الكريم التي يكررها، ويورد

---

(١) انظر: «الضوء اللامع، في أعيان القرن التاسع»، للسخاوي: (١٠/ ٨١).

(٢) «تاريخ البريهي»: (ص٢٩٨).



الأدلة الحسية والعقلية عليها، ويشير إليها في جميع سوره، وفي غالب قصصه وأمثاله، فهي ثلاثة مقاصد، يعرف ذلك من له كمال فهم، وحسن تدبر، وجودة تصور، وفضل تفكر، المقصد الأول: إثبات التوحيد، المقصد الثاني: إثبات المعاد، المقصد الثالث: إثبات النبوات)[1].

ثم إني لم أر لأحد كلامًا في هذا العلم الجليل من علوم القرآن بعد ذلك، ويمكن أن نقول: للقرآن العظيم مقاصد عظمى، منها:

قضايا الألوهية والمقصود بها مسائل التوحيد، وصفات الحق سبحانه وكمالاته، وما يجب وما يستحيل وما يجوز في حقه سبحانه.

ومنها: قضية مرادات الله تعالى من خلقه ومنها: أنه يريد بنا اليسر، ويريد أن يخفف عنا، ويريد أن يبين لنا، وأنه يعدنا مغفرة منه وفضلًا، وهذه أمور مغايرة لشؤون التوحيد، ومغايرة لشؤون الأحكام وبحوث التشريع، مع تنصيص القرآن على أنها مما يريده الله تعالى بنا، فهذا مقصد قرآني عظيم يجب توسيعه.

(١) «إرشاد الثقات، إلى اتفاق الشرائع على إثبات التوحيد والمعاد والنبوات»: (ص٣).

ومنها: قضية الوحي، وأنها فيصل بين العالمين، آمنت به أمم، وكفرت به أمم، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٩٧ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٩٨ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[١] وإثبات قضية الوحي، وإقامة دلائلها وصحتها، مقصد قرآني عظيم، تترتب عليه مسائل كبرى، حيث أكد القرآن على أهمية القضية، ودافع عن كل أركانها، فدافع القرآن عن جبريل في سورة البقرة، ونعى على الأمم السابقة التلاعب بالوحي الشريف وتحريفه، وأخبر عن حفظ القرآن الكريم وصيانته، إلى آخر أركان هذا المقصد.

ويمكننا أن نقول مثل ذلك في القضايا الآتية: النبوة، والهداية، والإعجاز، والتشريع، والقيم، والنظم، والآداب، وأصول الاجتماع الإنساني، وبناء النفس البشرية وتزكيتها، وعمارة الأرض، وحقوق الأكوان، وعلاقات الأمم، وغير ذلك مما يجب أن يدرس في بحوث مستقلة، ولا بد للمفسر من الإحاطة بذلك، واستحضار هذه المقاصد؛ ليرى كيف

---

(١) سورة البقرة، آية [٩٧-٩٩].





أنه من أجلها ضربت أمثال، وأوردت قصص، وسيقت أخبار، ونزلت سور، فيحسن توظيفها في ما قصد بها.





أصل آخر عظيم من أصول التفسير: (الاشتقاق الأكبر) وأثره في فهم النَّص

الاشتقاق علم من أجلّ علوم اللغة على الإطلاق، وأشدها تأثيرًا في فهم دلالة التراكيب، وهو علم دال على ثراء العربية، وسعة بحور اللغة، والأصل فيه إدراك المعاني ثم ملاحظة سريان المعنى في كل الصور اللفظية المتناسلة الدالة عليه، والتي انتزع بعضها من بعض، أو عكس ذلك، بأن تجمع الألفاظ المتشابهة على نحو معين بغية الوصول إلى المعنى الذي تدور حوله، إضافة إلى أنه تستخرج به من اللفظ الواحد صور بالغة الكثرة، في تعبيرها عن الأحوال والهيئات والاحتمالات والفوارق الدقيقة، التي تطرأ على المعنى الواحد باعتبار تنوع المشخصات واختلاف الأحوال، بحيث يستخرج لكل حال صورة من صور اللفظ.

ثم هو علم واسع دقيق فيه مؤلفات كثيرة، وإنما أردت هنا نوعًا محددًا من أنواع الاشتقاق، وهو نوع تنوعت أسماؤه عند العلماء، فسماه الفخر الرازي في «مفاتيح الغيب»[1]:

(١) «مفاتيح الغيب»: (١/ ٢٤).

(الاشتقاق الأكبر)، وتبعه محمد راغب باشا في كتاب: «السفينة» له، وتبعهما صديق حسن خان في «العَلَم الخفاق، من علم الاشتقاق»[1].

وسماه ابن جني في «الخصائص»[2]: (الاشتقاق الصغير)، وتبعه الشوكاني في «نزهة الأحداق، في علم الاشتقاق»[3].

وسمَّاه العلَّامة عبد الله أمين في كتاب «الاشتقاق»[4]: (الاشتقاق الكبار، أو القلب اللغوي).

وهؤلاء جميعًا يتكلمون على نوع واحد اختلفت أسماؤه، وقد أعلمتك بذلك لتعتني به، وتطالعه من كتبهم، مهما اختلف اسمه؛ لئلا يشتبه عليك، وإليك لمحة عنه.

قال الأستاذ عبد الله أمين في كتاب «الاشتقاق»: (الاشتقاق الكبار: وهو انتزاع كلمة من كلمة أخرى، بتغيير في ترتيب بعض أحرفهما، بتقديم بعضها على بعض، مع تشابه بينهما في المعنى، والاتفاق في الأحرف.

ويسمى هذا الاشتقاق: «قلبًا لغويًّا» تمييزًا له من القلب

(١) «العلم الخفاق»: (ص١٤).
(٢) «الخصائص»: (٢/ ١٣٣).
(٣) «نزهة الأحداق»: (ص٤٣).
(٤) «الاشتقاق»: (ص٢).



الصرفي الإعلالي، وهو: إبدال بعض أحرف العلة من بعض.

وقد أسميت هذا القلب اللغوي: «القلب الاشتقاقي»؛ لأنه من مباحث علم الاشتقاق، وأكثر ما يكون القلب الاشتقاقي في الكلمات الثلاثية، وبصيغتين في المادة الواحدة، مثل: «جذبه، وجبذه» إذا شده إليه، و«شج رأسه، وجشه» إذا كسره)[1].

قلت: ثم إليك لمحة عن طريقة إجرائه في الكلام، قال الإمام الفخر الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ في «التفسير الكبير»:

(**المسألة الأولى**: اعلم أن أكمل الطرق في تعريف مدلولات الألفاظ هو طريقة الاشتقاق، ثم إن الاشتقاق على نوعين: الاشتقاق الأصغر، والاشتقاق الأكبر.

أما الاشتقاق الأصغر فمثل اشتقاق صيغة الماضي والمستقبل من المصدر، ومثل اشتقاق اسم الفاعل واسم المفعول وغيرهما منه.

وأما الاشتقاق الأكبر فهو: أن الكلمة إذا كانت مركبة من الحروف كانت قابلة للانقلابات لا محالة، فنقول: أول مراتب هذا التركيب أن تكون الكلمة مركبة من حرفين، ومثل هذه

---

(١) «الاشتقاق»: (ص٢).

الكلمة لا تقبل إلا نوعين من التقليب، كقولنا: (من)، وقلبه: (نم).

وبعد هذه المرتبة أن تكون الكلمة مركبة من ثلاثة أحرف، كقولنا: (حمد)، وهذه الكلمة تقبل ستة أنواع من التقليبات؛ وذلك لأنه يمكن جعل كل واحد من تلك الحروف الثلاثة ابتداء لتلك الكلمة، وعلى كل واحد من التقديرات الثلاث، فإنه يمكن وقوع الحرفين الباقيين على وجهين، لكن ضرب الثلاثة في اثنين بستة، فهذه التقليبات الواقعة في الكلمات الثلاثيات، يمكن وقوعها على ستة أوجه.

ثم بعد هذه المرتبة أن تكون الكلمة رباعية، كقولنا: (عقرب، وثعلب)، وهي تقبل أربعة وعشرين وجهًا من التقليبات؛ وذلك لأنه يمكن جعل كل واحد من تلك الحروف الأربعة ابتداء لتلك الكلمة، وعلى كل واحد من تلك التقديرات الأربعة، فإنه يمكن وقوع الحروف الثلاثة الباقية على ستة أنواع من التقليبات، وضرب أربعة في ستة يفيد أربعة وعشرين وجهًا.

ثم بعد هذه المرتبة أن تكون الكلمة خماسية، كقولنا:

(سفرجل)، وهي تقبل مائة وعشرين نوعًا من التقليبات؛ وذلك لأنه يمكن جعل كل واحد من تلك الحروف الخمسة ابتداء لتلك الكلمة، وعلى كل واحد من هذه التقديرات، فإنه يمكن وقوع الحروف الأربعة الباقية على أربعة وعشرين وجهًا على ما سبق تقريره، وضرب خمسة في أربعة وعشرين بمائة وعشرين.

والضابط في الباب: أنك إذا عرفت التقاليب الممكنة في العدد الأقل، ثم أردت أن تعرف عدد التقاليب الممكنة في العدد الذي فوقه، فاضرب العدد الفوقاني في العدد الحاصل من التقاليب الممكنة في العدد الفوقاني، والله أعلم.

المسألة الثانية: اعلم أن اعتبار حال الاشتقاق الأصغر سهل معتاد مألوف. أما الاشتقاق الأكبر فرعايته صعبة، وكأنه لا يمكن رعايته إلا في الكلمات الثلاثية؛ لأن تقاليبها لا تزيد على الستة. أما الرباعيات والخماسيات فإنها كثيرة جدًّا، وأكثر تلك التركيبات تكون مهملة، فلا يمكن رعاية هذا النوع من الاشتقاق فيها إلا على سبيل الندرة، وأيضًا الكلمات الثلاثية قلما يوجد فيها ما يكون جميع تقاليبها الممكنة معتبرة، بل يكون في الأكثر بعضها مستعملًا، وبعضها مهملًا، ومع

ذلك فإن القدر الممكن منه هو الغاية القصوى في تحقيق الكلام في المباحث اللغوية)[1].

قلت: وقد نص الإمام الفخر، والعلامة عبد الله أمين فيما نقلت من كلاميهما على أن أكثر ما يستفاد من هذا الضرب من الاشتقاق في الألفاظ الثلاثية، ثم هو في الرباعية والخماسية عسر قليل الفائدة.

وقد عني العلامة اللغوي الضليع الأستاذ أحمد فارس الشدياق -رحمه الله- بجمع كل الألفاظ التي دخلها القلب والإبدال، مع الألفاظ المترادفات في فوائد أخرى حسنة، في كتاب جليل اسمه: ؟سر الليال، في القلب والإبدال؟.

وإليك أنموذجًا من التحليل الاشتقاقي لكلمة من القرآن الكريم، تطلعك على فائدة هذا العلم الشريف، وأثره في كمال الإحاطة بالمعاني القرآنية المرادة، والتي خفيت بعض جوانبها وراء اللفظ، الذي أومأ بصورته الاشتقاقية إلى المعنى؛ فاكتفى المتكلم سبحانه بذلك الإيماء عن التصريح:

مادة الكاف واللام والميم (ك ل م) ترد عليها بحسب ما

---

(١) «التفسير الكبير»: (١/ ٢٤)، وانظر كتاب: «الاشتقاق»، لعبد الله أمين: (ص٣٧٣-٣٨٨).

سبق ستة من التراكيب: (ك ل م)، (ك م ل)، (ل ك م)، (ل م ك)، (م ك ل)، (م ل ك)، استعملت العرب منها خمسة وأهملت السادس الذي هو: (ل م ك).

قال في «العلم الخفاق»: (والمعنى الجامع لهذه التراكيب: القوة والشدة، فالكَلْم: الجرح لما فيه من الشدة، والكُلَام -بضم الكاف: ما غلظ من الأرض؛ وذلك لقوته وشدته، ورجل كَلِيم: أي مجروح وجريح، وكَمُلَ الشيء فهو كامل وكَمِيل إذا تم، وهو أقوى وأشد من الناقص، ولكَمَ: إذا أوجع وضرب، وفيه شدة ظاهرة، ومَكُلَت البئر -بضم الكاف- فهو بئر مَكُول: إذا قل ماؤها، وهي إذا قل ماؤها مجفوة الجانب، وتلك شدة ظاهرة، ومَلَك العجين: إذا أنعم عجنه فاشتد وقوي، ومنه المُلْك؛ لما فيه من القوة لصاحبه والغلبة)[1].

قلت: فيمكن للمفسر لكتاب الله تعالى -توليدًا على ذلك- أن يتوسع في تحليل لفظ: (المَلَك)، والملائكة جنس شريف من الخلق معروف، أورد القرآن بعض أوصافهم وسكت عن بعض؛ اكتفاءً بدلالة الصورة الاشتقاقية للفظ الملك؛ إذ الأصل في اللفظ الدلالة على القوة والبأس، فكأن الأصل في الملك: القوة، تلك القوة التي تشيع وتسري في كل

(١) «العلم الخفاق»: (ص٤٥).

سماته وأوصافه، فهم لا يأكلون ولا يشربون، وهذه قوة، وهم لا ينامون، وهذه قوة، وهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وهذه قوة، ومنهم خزنة جهنم، وهم ملائكة غِلاظ شِداد، وهذه قوة، ثم هم مع بأسهم وسطوتهم وقوتهم يجمعون إلى ذلك غاية الخضوع للحق، فهم يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون، وهم مع حملهم للعرش يسبحون بحمد ربهم، ويستغفرون للذين آمنوا؛ مما يلفت نظر المفسر إلى توظيف قضية الملائكة في ترسيخ معنى عظمة الحق سبحانه، من حيث خضوع هذه الأكوان العظمى لجلاله، ويلفت نظر المفسر إلى جلال وعظمة القضية التي عرضها الحق سبحانه في قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[1]، ويعين المفسر على التصور الكامل لعظمة الإمداد بثلاثة آلاف، ثم بخمسة آلاف من الملائكة، الذين اتضحت سماتهم في الأوصاف السابقة، وكيف أن هذا الإمداد حدث هائل

---

(١) سورة آل عمران، آية [١٢٤-١٢٦].

عظيم، تهتز له القلوب وجلًا إن تصورت معنى الملك، ثم تعين المفسر على الكشف عن قيمة تلك البشارة، التي جاءت مخبرة بضمهم إلى صف المؤمنين، ويلوح بهذا سر الحديث القرآني بعدها مباشرة عن طمأنينة القلب، وقطع طرف الكافرين، وكبتهم، وخيبتهم، وأن ذلك كله نتيجة طبيعية للإخبار بالإمداد بملك واحد، فكيف بالألوف المؤلفة منهم؟!.

ثم إن هذا المدخل يلفت النظر إلى تغيير الصورة الشائعة في التصور الغربي عن الملك، حيث يشيع في الأدبيات الغربية أنه كائن في غاية الوداعة والرقة؛ فإن التصوير القرآني لهم، بل مجرد الفهم العميق لمدلول الاسم، كفيل بتغيير ذلك التصور، بحيث يراعى عند ترجمة معاني القرآن مثلًا أن تشرح كلمة (الملك) شرحًا كاشفًا عن تلك السمات، التي أخبر بها القرآن عن أوصاف الملائكة.

وبهذا المدخل أيضًا تتضح خصوصية جبريل ؛ حينما وصفه الحق سبحانه بقوله: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾(1) وأن خصوصيته ليست هي القوة؛ إذ القوة وصف لأي ملك، من حيث إنه ملك، لا يتميز بها واحد

(1) سورة النجم، آية [٥، ٦].



منهم عن الآخر، بموجب دلالة الاسم كما ذكرنا، وإنما اختص جبريل بقدر زائد، ومن هنا جاءت عظمة التعبير في قوله: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ إذ الوصف الخاص به شدة القوة لا مطلق القوة.

ويتضح لك أيضًا سر قوله سبحانه عن جبريل أيضًا: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾[1]، فهو هنا وصفه بمطلق القوة؛ لعدم ذكر لفظ الملك الذي يفيد معنى القوة، ولعدم ذكر ما يشعر به ويقوم مقامه، فلربما اشتبه على القارئ المراد بالرسول، أهو النبي ﷺ أو جبريل عليه السلام؟! فلما لم يذكر اللفظ بل عبر عنه بلفظ الرسول وصفه بالقوة؛ ليلتفت نظر العربي الفصيح، الذي وعى مدلول كلمة الملك، إلى أن المراد هنا جبريل وليس النبي ﷺ، فصارت كلمة (ذي قوة) في قوة قوله: (ملك)، وكأنه أيضًا لم يحتج في سورة التكوير إلى الوصف بشدة القوة؛ لما أن الوصف الذي قصد تكريم جبريل به هناك، هو المكانة عند ذي العرش سبحانه، فاكتفى أولًا بما يفهم منه القارئ أن الحديث عن جبريل، ثم خلص به إلى الوصف المقصود في ذلك الموضع، بخلاف سورة النجم؛ لأن الوصف المقصود فيها هو الإبانة عن

(١) سورة التكوير، آية [١٩، ٢٠].



خصوصية قوة جبريل، فلو أنه وصفه بالقوة مع وضوح كون الكلام عنه، لما زاد شيئًا على مدلول لفظ الملك، ولأن السياق في سورة النجم واضح في الحديث عن موحًى إليه، ووحي، وموحٍ؛ إذ قال هناك: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝﴾[1]، فتكلم عن النبي ﷺ ثم بيَّن أن كلامه وحي، ثم انتقل إلى وصف من يأتيه بالوحي، فعلم أن الكلام الآن عن ملك، ومجرد اسمه وصف بالقوة، فقال هنا: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾، وسبحان مَنْ هذا كلامه.

وإذا أَلِفْنا النظر والتأمل في المفردات القرآنية بهذه الطريقة؛ انفتحت لنا آفاق رحبة في الوقوف على التصورات الكاملة، التي أراد القرآن لنا أن نعرفها ونحيط بها، قال العلامة الأستاذ عبد الله أمين: (وهذا الضرب من الاشتقاق إذا أحسن الانتفاع به أمد اللغة بثروة حسنة)[2].

قلت: لأن الألفاظ حينئذ سوف تنثر لنا مكنوناتها، ويبوح كل لفظ بما يحمله معناه من أبعاد، ولا يخفى أن هذا في غاية الأهمية في فهم القرآن العربي المبين.

---

(١) سورة النجم، آية [٢-٦].

(٢) «الاشتقاق»: (ص٢).

وقد توسع في تطبيق قواعد الاشتقاق في تحليل التركيب القرآني الدكتور عودة الله منيع القيسي، في كتاب مهم جدًّا، اسمه: «سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن» وهو مطبوع.

وهذا آخر الكتاب المسمى بـ«**المدخل إلى أصول التفسير**»، والله أسأل أن يفتح لنا من أبواب الفهم في كتابه الكريم، وأن يرزقنا السداد والتوفيق والرشد، والحمد لله على فضله وإنعامه وتوفيقه، وله سبحانه الشكر والثناء الحسن الجميل، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.





الفهــرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

